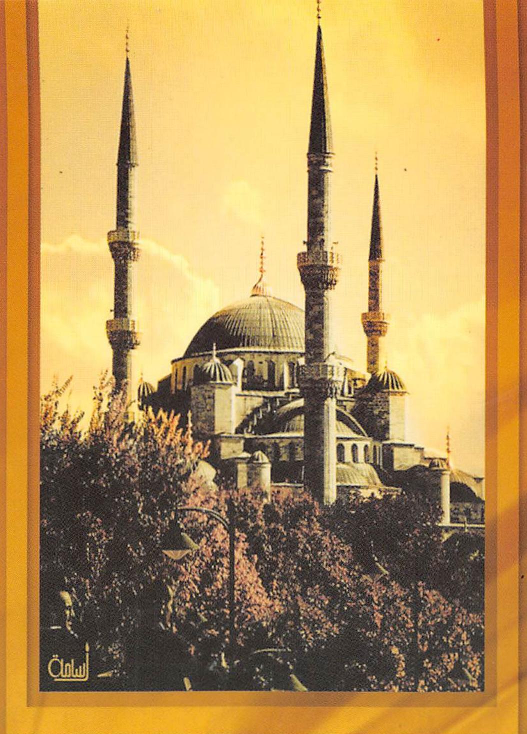
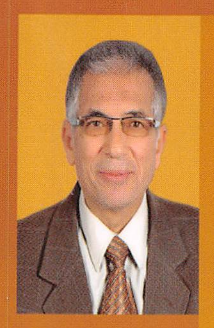


الدولة الحديثة

في المحيط الإسلامي بين الحقيقة والتزييف

أ. د / عبد الحليم عويس





أ . د / عبد الحليم عبد الفتاح محمد عويس

(وشهرته د/ عبد الحليم عويس)

- حصل على ليسانس اللغة العربية والعلوم الإسلامية من جامعة القاهرة (كلية دار العلوم) سنة ١٩٦٨م بمرتبة الشرف الثانية
- حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م
- حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (مارس ١٩٧٨)بمرتبة الشرف.
- عمل بجامعه الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من ١٩٧٤حتى ١٩٩٤
- عمل أستاذاً زائراً لعدد كبير من الجامعات في الهند وباكستان ، وماليزيا ، والجزائر ، وتونس ، والسودان، وتركيا ، وغيرها
- حضر أكثر من مائة مؤتمر عالمي ، ومؤتمرات أخرى إقليمية
- أشرف على نحو ٧٥رسالة ماجستير ودكتوراه في الحضارة والتاريخ فى جامعات مصر و جامعه الامام محمد بن سعود
- عمل نائب رئيس الجامعة الإسلامية بروتردام (هولندا)
- له أكثر من ٧٥مؤلف شملت موسوعات فقهيه وتاريخية وحضاريه وتفاسير للقرآن



✵ ✵ ✵ ✵

- عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية.
- عضو مؤسس لرابطة الأدب الإسلامي فرع القاهرة ،
- عضو مجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- رئيس تحرير مجلة التبيان بمصر.
- عضو اتحاد الكتاب بمصر.
- عضو نقابة الصحفيين.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.



دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة - المنصورة

القاهرة . محمول : ٠٢/٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

المنصورة . ص.ب : ١٦٧

الدولة الحديثة
في المحيط الإسلامي
بين الحقيقة والتزييف

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م

بطاقة الفهرسة

عويس ، عبد الحليم

الدولة الحديثة في المحيط الإسلامي بين الحقيقة والتزييف - دكتور/ عبد الحليم عويس . ط١.

المنصورة : دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٠م

١١٢ص ، ٢٠سم

رقم الإيداع : ٢٣٧٩٦/ ٢٠٠٩م

الترقيم الدولي : ٥-٣٥٢-٣١١-٩٧٧-٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع

المنصورة - ص.ب. : ١٦٧ ت ف : ٢٢٢٤٥٠٢ / ٠٥٠.

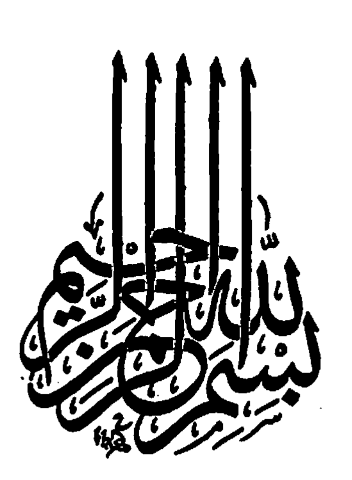
محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

e_mail:mmaggour@hotmail.com

الدولة الحديثة في المحيط الإسلامي بين الحقيقة والتزييف

أ.د/ عبد الحليم عويس

دار الكلمة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لا نستطيع أن نزعم أن هذه الرؤية التي تقدمها هي كلمة الفصل الخاتمة ولا هي الحق المطلق .

وحسبنا أنها محاولة موضوعية مخلصة لعبور (أزمة الدولة) التي وجدت نفسها فينا ووجدنا أنفسنا في هذا العصر الحديث !!

١ ـ أزمة الدولة :

ومع أننا فيها وهي ـ أيضًا ـ فينا فإن هناك انفصالا كبيرًا بيننا وبينها لدرجة أنها أصبحت مظلومة ظالمة ، وأصبحنا نحن ـ كذلك ـ مظلومين ظالمين .. فأحيانًا يرفض الناس كل ما يصدر عن السلطة حتى ولو كان بعضه حقًا ، وهم يرتابون حتى في علماء الدين الذين يتعاملون معها حتى لو قالوا حقًا !!

وأما السلطة ففي أحيان كثيرة لا تأبه بنا ، وهي تعرف أن وزيرًا أو عددًا من الوزراء مكروهون منا ، يعملون ضد ثوابتنا ويهدمون قلاعنا ، ومع ذلك فهي تبقيهم وتشجعهم على التطرف ضدنا .. بل إنها لتضع في قمة الأهرامات الثقافية والفكرية أعداء حقيقيين

لعقيدة الأمة وشريعتها وحضارتها ، ممن يعملون لصالح المشروع الثقافي الأمريكي الأوربي .. غير مبالية بمشاعرنا ولا مصالحنا !!

وهكذا وقع الانفصال النفسي بيننا وبينها ، وأصبح الحبُّ شذوذًا والشك قاعدة . وهذه الأوراق التي تقدمها محاولة للخروج من هذه الأزمة بعد أن استحفل خطرها وأصبحت السلطة تشبه جيش احتلال ، وأصبح الشعب عدوًا للسلطة إلا في الحدود التي تقتضيها المصلحة الضرورية .

فكيف وقع هذا الخلل الكبير في المحيط الإسلامي ؟

إن المجتمعات الغربية قد مَرَّتْ بهذه الأزمة حين كان للكنيسة صلة بالدولة تشبه صلة الروح بالجسد ، وأرادت الكنيسة أن تقهر العلم والعقل والأدب والفن ، وأن تجعل الناس يعيشون في الآخرة ، بينما تعيش هي في الدنيا .

٢ ـ الدولة الآن هي الكنيسة في العصور الوسطى تقف ضد العلم ، والدين الصحيح ، والبحث العلمي ، والتطور :

ثار الناس وعزلوها عن الدنيا ، وأصبحت الدولة هي المادة والعقل .. ولا روح فيها ، وليس لها في الحياة أيه غايات سامية ،

ولا صلة لمناهجها وتشريعاتها إلا بهذه الدنيا المحدودة حسبما يقتضيه العقل والمادة .. فلو أوجب العقل استنزاف شعوب ، أو إباحة شذوذ أو محرمات أخرى ، او استعمال وسائل غير شريفة من أجل مصلحة الدولة العليا ، فلا ضير في ذلك ، فلا أخلاق ولا ضمير ولا آخرة في السياسة التي تحقق مصلحة الدولة .

أما في العالم الإسلامي فهناك تركيبة حضارية أخرى ، حيث لم يكن هناك لا هوت ، وحيث لم تنفصل الروح عن الجسد ، وحيث يتشابك نسيج الحياة وتتكامل الطاقات ، فالروح والجسد معًا يُقَوِّيَانِ العقل ، والوسيلة تنسجم مع الغاية ، والحياة الدنيا المحدودة مرتبطة بالآخرة فهي من غيرها جملة غير مفيدة !

٣ـ (وبإيجاز : إن الله موجود في صياغتنا الحضارية للحياة .. ولا تستطيع الدولة أن تهمل « الله » إلا إذا خانت حضارتنا كلها ، وأصبحت تعبيرًا عن حضارة أعدائنا .. هؤلاء الذين عزلوا وجود الله وهيمنته في ركن خَصَّصُوه له مكانًا ، وفي يوم حَدَّدُوه له زمانًا .. هؤلاء الذين فصلوا بين الروح والجسد والعقل وأعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر) وأذاقوا البشرية ـ باسم المصلحة والعقل ـ أبشع صنوف الاستعمار (الاستدمار) ، واخترعوا النظم الدولية

غير العادلة ونشروا الفوضى في العالم ، وأشعلوا الحروب العالمية (المصلحية) . ودمَّروا المعاني الإنسانية والأخلاقية في الحياة .. !!

إنه من حقنا ـ بل من واجبنا ـ ان نطالب بألا نكون نسخة مكررة من هؤلاء ، وأن تبقى لنا منهجيتنا الربانية والإنسانية ، وأن نعمل على أن تكون الدولة تعبيرًا عن مشروعنا الحضاري ، وان تبقى جزءًا منا لا أن تكون بيننا وليست منا ، ومنتمية إلى حضارتنا لكنها خاضعة لمشروعات وتخطيطات وتوجيهات تجرها إلى فلك الأعداء.

وليس من مصلحة الإنسانية أن يكون هناك مشروع واحد تخضع له ، ولا سيما إذا كان هذا المشروع يعمل لحساب قومه فقط ، وليست له رسالة إنسانية ولا أخلاقية ،كما أن هذا المشروع يترجم عن تاريخ أبنائه وتجربتهم ، والعقائد التي سيطرت عليهم ، بل من مصلحة الإنسانية ـ ومن مصلحتنا في المحيطين العربي والإسلامي ـ أن نتمسك بالتعددية الحضارية وبمشروعنا الإنساني والأخلاقي ، والذي لا نستطيع بدونه أن نكون أحرارًا وسادة جديرين بالحياة !!

لقد تخلت تركيا ـ بدءًا من سقوط الخلافة واستيلاء مصطفى

كمال على كل شيء - عن الدين وعن اللغة التركية القديمة ، وعن الطربوش .. وعن علاقتها بالعالم الإسلامي ، ومع ذلك ما زال الغرب يرفضها بوضوح ، ويقول لها : إننا لن نقبلك إلا إذا تركت الإسلام كله ، وفرقناك إربًا وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من أوربا .. وأعلن (أوزال) - الرئيس السابق لتركيا - رفضه لهذا الاستعباد وهذا المسخ بعد سبعين سنة من العلمانية ، واللادينية ، والفوضى ، والعذاب الشديد !! .

فحتى لا تكرر التجارب الفاشلة ، وحتى لا تتفكك الدولة ، وحتى لا تنقطع صلتها بالشعب ، وحتى لا تستعر المعارك الداخلية ، وحتى تستقيم الحال وتقلع من هذه الأزمة الخانقة - أقدم هذه الرؤية : رسالة حب للدولة وللشعب معًا ، وخطوطًا عامة يصلح الالتقاء عليها ومناقشتها . عسانا ننقذ الأمة كلها ، فلربما جاء يوم نعود فيه - بحق - خير أمة أخرجت للناس .

أ . د / عبد الحليم عويس

مقارنة بين الدولتين الحقيقية والمزيفة

تقوم (مؤسسة الدولة) في مرحلة الاستقلال المزيف في المحيطين العربي والإسلامي على نمطية قاتلة أحسنت العبقرية الاستعمارية صياغتها !!

إنها نمطية تحمل في احشائها كل الأمراض الكفيلة بتدمير طاقة الأمة ، فهي سواء كانت متحركة أو ساكنة ... مستيقظة أو نائمة .. منتبهة أو غافلة .. تحمل معها ما استقر في أحشائها من أمراض وأوباء !! .

لقد كان التطور العقلي الأوربي قد بلغ مداه العميق من الفقهين السياسي والحضاري ، وقد أصبحت لديه القدرة على أن يصنع القوالب الجاهزة التي تبدو جميلة المظهر متينة البناء طليقة الحركة . لكنها في الحقيقة معبأة بأنواع من الخلل وصور من التناقضات تجعلها تتقدم خطوة فتخسر بها خطوتين ، وتبني طابقًا لتهدم به طابقين ، وتقيم أشكالاً ذات مظاهر حضارية تنفق عليها المليارات ، لكنها في حقيقتها خالية من الفعالية الحضارية .

٤ ـ صفر البحث العلمي :

(لنتذكر هنا مراكز البحوث في المحيطين العربي والإسلامي والإمكانات الهزيلة المتاحة لها ، والنتائج التي تصل إليها .. ولنتذكر الفروق بين هذه المراكز الشكلية جدًا وبين مراكز البحوث في الدول الأوربية وأمريكا واليابان مثلاً ..) .

٥ ـ صفر الجامعات حتى الأزهر :

(ولنتذكر الجامعات والجامعين ، وكيف تحولت أوراق الشهادات وألقابها إلى غاية في حد ذاتها ، حتى الشهادات التي يحصل عليها أصحابها من الجامعات الأوربية والأمريكية تفرغ أيضًا من مضمونها) فهي شهادة جميلة مطبوعة بالخط الجميل الذي كتبت به الشهادة التي حصل عليها الطالب الأوربي نفسه .. لكن الجامعة الأوربية تدرك حدود العطاء الذي تقدمه للطالب العربي والمسلم ـ ثم هي ترسله بعد أن تمنحه ورقة الشهادة ـ مطمئنة ـ إلى مؤسسة الدولة التي ينتمي الطالب المسلم إليها ، والتي تعرف الجامعة الأوربية ـ بيقين ـ أنها كفيلة بتحقيق التحنيط الكامل للطالب والإفراغ الكامل لأية بصمات حضارية يكون الطالب قد

حصل عليها متجاوزًا الحدود المرسومة له هناك أو هنا .. وفعلاً يثبت لدينا أن مؤسسة الدولة ، تحقق تمامًا الأهداف المرسومة لها ، وتقضي على كل البواكير الإبداعية التي يمكن أن تكون قد ظهرت عن طريق الخطأ في طالب الشهادة الأوربية .

أما الشهادات الجامعية داخل المحيط الإسلامي ، حيث لا تتوافر إمكانات البحث العلمي ، وحيث يحشد الطلاب بالآلاف ، وحيث يحارب كل نابغة ، وكل حر الفكر .

٦- الولاء والثقة لا القدرة والكفاية :

وحيث (ينظر إلى الشخص من منظور الثقة والولاء وليس الكفاية والنبوغ ، بل ينظر إليه أحيانًا من منظور أصله القبائلي أو الوطني الضيق أو المذهبي .. حيث تقوم كل هذه الأصفاد والأكبال ، فإن احتمالات ظهور عبقري تكاد تكون معدومة !!) .

ولا نريد هنا أن نستطرد في تقديم الصور الجميلة في الظاهر ، الفارغة في الحقيقة من محتواها ، فهي معروفة شائعة ، لكننا نريد أن نقف عند تحليل هذه الظاهرة فنتسائل :

كيف نجحت العبقرية الاستعمارية في تعطيل دولاب الحضارة

للأمة العربية والإسلامية على هذا النحو ؟ .

إن الأمر بالتأكيد يحتاج إلى دراسة عميقة ، لكننا سنحاول أن نقدم بعض الومضات فلعل غيرنا يتقدم فيكون أقدر منا على تقديم المزيد ، حتى يعتدل الميزان في أيدينا ، ونعرف من أين يأتينا هذا الوهن الذي نعيش فيه ؟

٧ـ الخلل الأكاديمي :

ولكي نعرف بعض الحق في هذه القضية الخطيرة ، فإن الواجب يفرض (علينا أن نعترف بأن العقلية الاستعمارية عقلية جماعية تفكر بمنهجية علمية قوية ،وتعتمد على فقه الأنثروبولوجيا وعلم نفس الشعوب ، وهي قادرة على استبطان التاريخ واستنطاقه حتى من خلال بحوثنا التي نكتبها نحن بطريقة جادة ، ولكنها جامدة وبعلمية قوية ،ولكنها ساكنة ،وغير ناطقة) بينما يتفننون هم في تجاوز الوقائع والسواكن إلى عالم الاستنطاق الفلسفي لتاريخنا !!

٨ـ الاستعمار بواسطة مؤسسة الدولة ـ يقود الشعوب للموت :

ويجب أن نعترف أيضًا بأننا على العكس من ذلك ، وذلك هو السبب الرئيسي في اختراق الاستعمار لنا (نحن الذين أعطينا

الاستعمار الفرص الذهبية لتوجيه قطارنا الحضاري بقيادة مؤسسة الدولة إلى الطريق الذي يريدنا أن ننتهي إليه مبددين هذا التوجيه - في كثير من الأحيان - جهود أجيال وطاقات أحقاب كثيرة من السنين !!) .

إن بعض الزعماء يتحركون في اتجاهات يظنون أنهم يحققون الخير فيها لأمتهم وأنهم يمشون في الطريق المعاكس لأهداف الاستعمار ، بينما يكونون في الحقيقة قد قدموا للاستعمار أفضل الخدمات التي لم يكن يحلم بها !!

وأنا أدعو كل المخلصين ، وأناشدهم الله أن يتجردوا بموضوعية شديدة لتحليل تلك الفترة التي حكم فيها جمال عبد الناصر حتى انتهى إلى نكبة ١٩٦٧م !!

وأنا لا أريد أن أدخل طرفًا في الألعاب البهلوانية السياسية التي تدفعنا إلى البعد عن الحوار الموضوعي ، فإنه تحت راية عملية (التصنيف) يتم رفض الرأي الآخر - ابتداء - ويوقف إعمال العقل ، ويحكم على القضية من خلال الأوهام المسبقة حول انتماءات مَنْ يطرحها للبحث !!

إنني شخصيًا أعلن أنني لم أُصَبْ من حكم عبد الناصر - ولا أحد في عائلتي أو قريتي - بأي أذى، بل إن بعض الفوائد قد أصابتنا كناس ينتمون إلى الطبقات الكادحة.

لكنني مع ذلك أقول: لو أن عبد الناصر كان ينتمي فعلاً إلى الثوابت الحضارية العربية والإسلامية، وعلى أساس هذه الثوابت وطموحات المستقبل تواضع وتفاعل مع الإنسان والعقل المصريين والعربيين، وأنشأ أجهزة حقيقية للشورى، والرأي الآخر، والبحث العلمي، وعكف على تقديم نموذج من بلده يصلح للبلدان العربية الأخرى، وسار فيما سارت فيه اليابان بصمت وبدون ضجيج بعد هزيمتها الرسمية وقبولها بالاستسلام في ١٥ أغسطس ١٩٤٥م.

وبدلاً من أن ينشئ (وزارة الهجرة) ويفتح الأبواب لطرد الإنسان المصري من بلده تحت ظروف القهر السياسي وأساليب التجسس والتعذيب التي أصبحت كالشبح الذي يشعر به كل الناس الذين تعيش بعض الثوابت في أعماقهم، ويريدون أن يقدموا فهمهم لخدمة بلدهم.

بدلاً من هذا يحنو الإنسان ويدربه على التعبير الموضوعي غير الانفعالي عن نفسه ، ويفتح له مجالات الإبداع ويستقطب كل المصريين المهاجرين ، ويرفض استيراد أفكار معلبة جاهزة ، كما يرفض أيضًا استيراد وسائل متطورة لتعذيب هذا الإنسان المصري العاطفي بطبيعته .

لقد كان جديرًا بعبد الناصر ـ لو فعل هذا ـ أن يخرج إنسانًا آخر يصلح لمرحلة الاستقلال قادرًا على صناعة الحضارة زارعًا ، صانعًا ، مبدعًا ،منافسًا للإنسان الياباني الذي لم يكن أقلَّ منه في الاستعدادات والمواهب الشخصية.. ولنتذكر هنا الإبداع المصري الفكري والأدبي مع وجود الاستعمار ـ في مرحلة الثلاثينات والأربعينات وهو إبداع ما زال هو الموجود في حياتنا اليوم !!

لكن العبقرية الاستعمارية التي تعرف شروط التطور ما كان ممكنًا أن تترك مصر لتمضي في الطريق الصحيح ، بعد أن فرضت عليها الأوضاع العالمية فرضًا أن تتخلى عن الاستعمارين العسكري والسياسي المباشرين .. إن معنى ذلك أن تترك مصر تمضي إلى نهضتها ، ومن ثم يمضي العالمان العربي والإسلامي بعدها ،

ويتحقق نموذج عربي إسلامي عصري التطور ، وهو الأمر الذي لن تسمح به ، لأنه أخطر شيء على الحضارة الاستعمارية والأهداف الصهيونية والصليبية !!

لقد قضت - ببراعة - على الخلافة العثمانية بعد ان اخترقتها من الداخل وأفسدت نموذجها ، وصنعت من الذين قضوا عليها أبطالاً عسكريين وسياسيين ، وجعلت من مصطفى كمال العلماني المجهول الأصل (أبا لأتراك) (هذا هو معنى كلمة أتاتورك) - وبقضائها على الخلافة العثمانية استراحت واطمأنت على غيبة الحضارة الإسلامية من ساحة التنافس الحضاري ،وزاد اطمئنانها استقرار النموذج الذي صنعته لمؤسسة الدولة العربية والإسلامية وبعد الإستقرار .. أفتسمح إذن لمصر أو لغير مصر بتقديم نموذج الدولة الإسلامية العربية العصرية ؟ !

لقد كان على عبد الناصر ان يدرك هذا التحدي وهذه البديهية ، وأن يعمل على استنفار الإنسان المصري ،بكل ما لديه من عقل وخبرة تاريخية وإسلامية ، من اجل الإفلات من التركيبة التي صنعها الاستعمار ، وساق العرب إليها من أجل أن يمضوا - وهو

آمن - إلى حيث يحققون أهداف الاستعمار وهم لا يشعرون !!

ولم يقلق الاستعمار بظهور بعض بصماته - فهذه النسبة التي ظهرت كانت في حسابات واضعي مخططاته .. وهو - إلى جانب ذلك - يثق بأن لديه من الأساليب ما يضمن تخدير العرب والمسلمين على أوهام كاذبة ، وإرهابهم عن طريق مؤسسة الدولة حتى لا يمضوا في طريق صناعة الحضارة ، وحتى لو مضوا بعض الخطوات في بعض لحظات اليقظة القليلة فهو قادر على إرباك خطواتهم اعتمادًا على بعض رجاله الأغرار ، أو الخونة من العرب والمسلمين الذين يستخدمون نفوذه ووسائله ليمنحهم الأوسمة ، والألقاب ، والمناصب ، وتذاكر الطيران لحضور المؤتمرات المشبوهة !!

عاملان أساسيان أجهضا نموذج الدولة الحديثة

ومرة أخرى نعود إلى خيطنا الأول فنحاول الإجابة على السؤال الذي طرحناه حول أسلوب نجاح الاستعمار في تعطيل دولاب الحضارة الإسلامية عن طريق مؤسسة الدولة التي صنعها، وعن طريق ما تتمتع به العقلية الاستعمارية من جماعية عبقرية وما يتمتع العقل العربي والمسلم من فردية وجزئية وشتات !!

٩ ـ صناعة الاستعمار للدول بعد خروجه من البلاد (فرق تسد) وعيد الاستقلال مأتم :

إن الاستعمار ـ كما نرى ـ يملك مؤهلات النجاح في جانبين أساسيين :

فالجانب الأول : هو جانب العقل العربي والإسلامي الفردي الجزئي الذي لا يحاول أن يعي حقيقة القطار الذي أركبه فيه العقل الاستعماري ،وهو (قطار الدولة) الذي حرص الاستعمار على صناعته، بل وعلى الإكثار من عرباته وآلياته .. ولقد وقف

الاستعمار عندما شعر بحتمية خروجه العسكري من بلاد المسلمين وراء كل محاولات إنشاء الدول ، بل وكل محاولات إنشاء دولة من دولة ، أو دويلات من دولة (!!) .

وقد كان العرب والمسلمون يرددون في بلاهة غربية قولهم المشهور : إن الاستعمار يعتمد في تحطيمنا على سياسة (فرق تسد) . لكنهم جميعًا - وبالقدر نفسه من البلاهة - كانوا يستميتون في سبيل ركوب قطار الدول الذي هو قطار (فرق تسد) ، ويهنئ بعضهم بعضًا كلما صنعت عربة جديدة أو لنسمها آلية جديدة ، وغالبًا ما يبادرون فيرسلون لبعضهم التهائي في يوم صناعة هذه الآلية (الدولة) ويطلقون على هذا اليوم الميمون (!!) اليوم الوطني (وكأن الأيام الأخرى أيام غير وطنية) ، وبعضهم يسميه (يوم الاستقلال) ويتجوز بعضهم متجرئًا على المصطلحات الإسلامية كاشفًا عن هيمنة المصطلحات العلمانية فيسميه (عيد الاستقلال) !!

وعند القيام بأي تحليل موضوعي فإننا نتأكد من أن هذا اليوم ليس (إطلاقًا) بداية عهد الاستقلال ، بل هو بداية تسلط أقلية

مرتبطة بكليات الاستعمار وبرامجه من حيث لا تشعر غالبًا (لكنها ـ وهذه هي المأساة لا تحاول أن تشعر ولا أن تعرف) ومن حيث تشعر أحيانًا .. كما أنه ليس يوم (عيد) لا من الناحية العقلية ، إذ أن نتائج هذا اليوم العملية لا الشعارتية ولا الإعلامية ، هي نتائج ضد الإنسان بيقين ، وضد مقومات الحضارة المعنوية والمادية ، فما أهدرت كرامة الإنسان المسلم وصودرت أبسط حقوقه ـ غالبا ـ إلا بداية من هذا اليوم (فقد كان الاستعمار ـ لذكائه المصلحي ـ أعقل من أن يمارس هذا الإجرام الذي مارسه أبطال الاستقلال مع (المواطن) المسلم والعربي !!) .

أما الجانب الثاني : الذي وفر النجاح الساحق للاستعمار في فكرته الخبيثة ، وهي فكرة الدولة المستقلة (سياسيًا وعسكريًا في الظاهر) والتي لا تملك (في الواقع) الحد الأدنى من مقومات الدولة الحضارية .

١٠- فهو جانب المستوى العقلي التخطيطي الرفيع المستوى والعبقري الذي يملكه الاستعمار !!

إن الذين أقيموا على مؤسسة الدولة في الأعم الأغلب لم يفكروا

إطلاقًا (عبر مؤسسات حضارية معتمدة) في التعرف على ركائز قيام الأمم ونهضتها ، وعوامل انحطاطها وسقوطها .. فبأي منظور يحكمون الدولة إذن ؟) .

إنهم يحكمون بحرية شديدة وبحركة مباركة وإخلاص كبير يبدو لهم ، لكنهم لا يدركون أن كل ذلك يتفاعل داخل عربة القطار ، وأنهم مهما نشطوا وتحروا وألقوا الخطابات الملتهبة وأقاموا المستشفيات ، والمدارس ، والمباريات الكروية الرائعة التي يتفوقون فيها على الدول الاستعمارية نفسها .. مهما يكن من أمر هذه الاستعراضات الجزئية والهامشية الرائعة ، فإنها كذلك ـ محكومة بقواعد اللعبة وتمضي في داخل العربة وسيصل القطار بهم إلى المحطة التي حددها الاستعمار سلفًا ، وهي ـ على كل حال ـ لن تكون محطة حضارية ، بل حسبها أن تكون مهرجانًا من المهرجانات ، أو زخرفًا من البدائل الكرتونية !!

ودعونا نقدم بعض التطبيقات .. بدءًا من ذلك اليوم المشئوم بحق .. إنه اليوم الذي يمثل أحد يومين بارزين في تاريخنا ، يجب أن نحتفل بسوء أثرهما كل عام ، وأن نبكي فيهما دمًا كما كان اليهود

يبكون على حائط المبكى بدل هذه الأعياد الفجة التي نخترعها من أعماق أوهامنا الكاذبة .

١١ ـ أيام شؤم :

(إن هذا اليوم المشئوم هو اليوم الذي نجح فيه الاستعمار في إلغاء (خلافة) العثمانيين وإعلان قيام (دولة) تركيا العلمانية بقيادة الشخص الذي قبل بيع دينه وولائه لحضارة الإسلام وهو مصطفى كمال الذي لقبوه (أتاتورك) .. بل في هذا اليوم بدأ في الحقيقة مولد إسرائيل ودخول المشروع الصهيوني في مرحلة التنفيذ !!) .

وفي هذا اليوم تحولت (الخلافة) إلى (دولة) وبدأت عربات القطار تنفرط ، وكان قد مهد الاستعمار من قبل لانفراطها ، فهو سعى منذ قرون لهذا اليوم ـ كما هي عادته العبقرية في التخطيط لكن هذا اليوم ـ هو البداية الفعلية لتجلي الظاهرة الخبيثة المسماة مؤسسة الدولة التي يتزعمها شخص تنحصر همومه ـ إذا وجدت ـ في الحدود الجغرافية للدولة ، ويتفاعل مع الحضارة الإسلامية ـ إن تفاعل ـ ببعض مظاهر (الصدقة) لا من منطلق المسئولية

الإسلامية والحضارية والواجب !!

(واليوم الثاني - بالمناسبة فقط - هو يوم سقوط غرناطة وطردنا شر طردة من الأندلس سنة ١٤٩٢م أي (٨٩٧ هـ) !!) .

إن العبقرية الاستعمارية نجحت نجاحًا ساحقًا في الفصل بين عقل الأمة الذي هو الدعاة ، والعلماء ، والخبراء ، والمنظرون ، وأساتذة التاريخ ، والحضارة ، وفلاسفة السياسة ، والاجتماع البشري ، والأنثروبولوجيا .. وجسد الأمة الذي هو الحكومة بمؤسساتها المختلفة ، والشعب المحكوم .

إن (عقل الأمة) في المساجد ، والمدارس ، والجامعات ، وبعض الصحف ، لكن (جسد الأمة) لا تربطه به أية جسور عملية .

والشباب يحصل على الشهادة الجامعية من مؤسسة تنتمي إلى (عقل) الأمة فإذا ما تحول إلى « موظف » - أي إلى عضو في جسد الأمة - انفصل تمامًا عن العقل ، وأصبح موظفًا « بيروقراطيًا » غير فاعل يدور في فلك نفسه ، واستسلم تمامًا لضوابط الجسد المسماة باللوائح ، وربما لم يكن لبعضها أية معقولية ، وربما وضعها الاستعمار لتأصيل التخلف وتعميقه !!

والباحث يحصل على الدكتوراه ، فإذا عُيِّنَ عميدًا أو في السلك الإداري القيادي - بل إنه إذا تعامل أحيانًا مع طلابه - عاش في إسار الخوف ، وانصهر في الجسد ، وفقد روح الإبداع والمبادرة .

(وعندما نسأل أنفسنا عن دور الجامعات في صناعة القرار السياسي أو الاقتصادي في الدولة فإننا نجده دورً هزيلاً جدًا) وربما انعدم بالمرة ، بينما تعتبر الجامعات في أمريكا وأوربا المعامل التي تصهر كل المعادلات وتقدم الخلاصة لصانع القرار فيأخذها بكل احترام وتقدير وكأنه وجد طوق النجاة .

(فعقل الأمة في الحقيقة هو الذي يحكم في الدولة المتقدمة ، وعقل الأمة مشلول مبعد محكوم بل مقهور في الدولة الإسلامية) .

بل إن بعض الدول المتحرة تعمل على بلبلة عقل أمتها وشعبها ، فهي تأتي بقيادات تنتمي إليه هي - أي إلى الجسد - لتكفيها تبعة أية محاولة يقوم بها عقل الأمة في اتجاه الحركة الإيجابية .. وفي بعض العهود الثورية القهرية كان الأمر صريحًا وواضحًا فقد كان يعين وزراء الأمة من هؤلاء التنفيذيين الذين لا يشعر أحدهم بأدنى

حاجة إلى عقل الأمة ، وكان أقصى نجاحه أن يجعل عقل الأمة في حالة سكون !!

وما يقال في جهاز الحكم يقال في الأجهزة المساعدة ، بل وفي المؤسسات الأخرى الاقتصادية والفكرية .

١٢ - ظاهرة المؤتمر والتكاليف :

ونسأل أنفسنا هنا إذن : كم من التوصيات التي أصدرها عقل الأمة في المؤتمرات التي ينفق عليها ـ غالبًا ـ جسد الأمة استفيد بها ؟

ومع أن المؤتمرين لا يقصرون وغالبًا ما يحاولون إرضاء ربهم وضميرهم وتقديم بحوث جيدة واقتراحات بناءة ، إلا أن الحكام ينظرون إليهم شذرًا ولسان حالهم يقول : لقد قلتم ما عندكم وأرحتم أنفسكم وهدأتم (أو خدرتم)ضمائركم فبهذا تكونون قد حققتم ما تريدون ، أديتم ما عليكم وإلى هنا ينتهي دوركم !!

لم نسأل الحكومات في مؤسسة الدولة نفسها عن جدوى هذا العبث بأموال الأمة ، وجدوى هذا الوأد لعقل الأمة مع أنه ليس في صالحها إطلاقًا ، بل هو أكبر من معول بهدمها .. فجسد بلا عقل لا بد أن يسقط سريعًا (!!) لكنه القطار الجهنمي الذي

أركبها الاستعمار فيه قطار مؤسسة الدولة المعاصرة !!

لقد حكى لي أستاذ عظيم من أساتذتي ، وهو كاتب كبير أيضًا وعضو في المجالس القومية المتخصصة ـ آنذاك ـ بمصر أن الأعضاء في هذه المجالس يقومون بتقديم دراسات جيدة لكن جهاز الدولة لا يعبأ بها .. !!

وأنا أعلم أن الدكتور محمد عبد القادر حاتم ـ الرئيس الأسبق للمجالس القومية المتخصصة ـ رجل رصين وواع ، وله كتاب رائع عن أسباب تقدم اليابان ، فهو وثيق الصلة إذن بتجربة دولة ناجحة ـ بالمقاييس الحضارية المادية ـ وله خبرته المعروفة فكيف فشل ـ رغم ذلك ـ في إقامة الجسور بين هذا الرافد الذي يرأسه من روافد عقل الأمة وبين جهاز الحكم ؟!!

١٣ – المجالس القومية المتخصصة :

إنني بالطبع أعلم أنني أقدم بحديثي هنا الإجابة نيابة عن الدكتور حاتم ، بل وبعض العذر ، فمؤسسة الدولة المعاصرة ما دامت هذه هي تركيبتها في عصر الاستقلال السياسي ، فإنه من الصعب على الدكتور حاتم ـ أو من جاءوا بعده ـ وأعضاء المجالس

القومية اختراق هذا التركيب (!!) وهذا صحيح ، لكنني كنت أريد منه ومن غيره من المخلصين القائمين على أمر المؤسسات المناظرة في العالم الإسلامي أن يواجهوا الشبح الكبير بحقيقة تركيبته ، وأن يحاولوا التعاون معه على معرفة حقيقته ، وإعادة تركيبه بعد فكه تركيبًا سلميًا ، بواسطة التعاون بينه وبين عقل الأمة ، وذلك بهدف إزالة الألغام التي وضعها الاستعمار فيه ، والتي تمنعه من الوقوف فوق قضبانه هو ، ومن الاتجاه إلى محطته ومن معرفة ذاته ، وماذا يمكن أن يعطي في سوق الحضارة المعاصرة ؟

إنني أنطلق هنا من رغبة صادقة في الإصلاح ، ولست صاحب حركة ولا مذهب في المعارضة أو المقاومة ، وليس لي أي مطمح سياسي ، بل وقد عرفت بأنني أرفض (أو أضعف !) في الاصطدام بالحاكم ، بل لا أرى ذلك سبيل إصلاح بل هو تكديس للمشكلات وتعقيد التركيب !! .

وفي ضوء هذا فأنا لا أرى ما يراه بعض المتطرفين من أن كل مؤسسات الدولة في العالم الإسلامي مجردة من الإخلاص ، ومجردة

من الرغبة الصادقة في الخروج من المعتقل الاستعماري، لكن (المشكلة هي في مجموعة الأطباء الذين يستطيعون إقناعهم بضرورة عمل الكشف الشامل والتحليل الكامل بواسطة فريق كامل (كونسلتو) من الأطباء الحاذقين المستوعبين لجهاز الدولة .. والمهم أن يقنعوهم بأزمة الجسد، وبحتميه العلاج .. وإلا فإن الانفصال سيظل قائمًا بين المخ والأعصاب المؤثرة والأعضاء المنفذة !!) .

١٤- أليس عجيبًا - بعد نصف قرن من استقلال أكثر الدول الإسلامية - ألا تقوم دولة واحدة بتشكيل لجنة ذات مستوى رفيع ومن عدد كاف من الأعضاء الثقات الأكفاء لدراسة (شروط النهضة) و (مؤهلات الحضارة) و (الواقع الحضاري الخصوصي لها) .. مع إدراك قسماتها الحضارية التي لا يجوز أن تبيعها أو تساوم عليها، والعوامل المشتركة القابلة للتفاعل ،والأفكار والمعلومات والتصاميم التي يجب أن تأخذها أو تسرقها - كما سرقت اليابان أحيانًا - من الآخرين ؟ .

أليست هذه الغيبوبة أمرًا عجيبًا ؟ !

وكيف ـ يا تُرى ـ بتحرك قطار هذه الدول المنشغله بالجزئيات والمشكلات اليومية ، والعلاقات الجزئية ، والإنجازات الصغيرة من بناء مستشفيات ومدارس ، ورصف طرق ، وتوفير الحد الأدنى لبناء الحياة في مستواها الإنساني الأدنى ؟ !

وليس المهم ـ فحسبُ ـ أن تقوم دولة بتشكيل لجنة لهذه القضية المصيرية ، فهذا ربما يبادر إليه الآن عشرات من هذه الدول ، لكن الأهم من تشكيل اللجنة المعنية بشروط النهضة ومؤهلات الحضارة أن تلزم الدولة التي أمرت بعقد اللجنة نفسها وأجهزتها الفاعلة ـ ابتداءً وقبل عقد اللجنة ـ بالأخذ بما تنتهي إليه اللجنة ... وإذا كان لديها اعتراض على أمر ما فيجب أن يناقش الاعتراض بلجنة أخرى في المستوى الحضاري نفسه ، ولا يُلغي أو يقبل بقرار سياسي من الدولة !!

١٥ – وزارات التخطيط والدراسات الاستراتيجية :

وأمر آخر يأخذك العجب منه بشأن هذه المؤسسة « الدولة » في العصر الحديث . ففي معظم هذه الدول وزارات تسمى وزارة التخطيط ، لكنهم ينظرون إليها على أنها وزارات ثانوية ويعتبر

وزيرها وزيرًا من الدرجة الثانية ، فوزارته ليست من الوزارات الاستراتيجية أو وزارات الحكم الأساسية ..

وفي معظم هذه البلاد قد تجد مراكز للدراسات الاستراتيجية يكلف بالإشراف عليها أناس مثقفون ، لكنهم ـ غالبًا ـ من الذين ينتمون للحاكم والدولة لا للأمة وثوابتها الحضارية !!

وأيًا كان الأمر فمع وجود هذه الوزارات وهذه المؤسسات التخطيطية أو لاستراتيجية تبدو الدولة في حالة شلل كامل ، وعمى تام عن إستشراف آفاق المستقبل .

١٦ ـ بل إنه من السخرية المخزية أن بعض الأوامر المستقبلية تكون واضحة تمامًا في أذهان المثقفين وأنصاف المثقفين ، وربما كان الناس يتحدثون عنها في مجالسهم ويؤمنون بأنها ستقع ، كما يؤمنون بأن الشمس ستطلع غدًا من المشرق .. وفعلاً تقع النوازل ويهجم الأعداء ، أو يحصد الأعداء المغنم ، أو يصلون إلى غرضهم المعروف ، وتبدو الدولة (بكل هذه الأجهزة الجبارة) وكأنها كانت صنمًا لا يعقل ، أو كأنها كالزوج المخدوع « آخر من يعلم » ... !

إن المفكر المعروف الدكتور « زكي نجيب محمود » يشير إلى هذه العجيبة في تركيبة بعض الدول ومنها الدول المسماة بالدول العربية [1] . فيقول : « انظر إن شئت إلى الحياة العربية في تاريخها الحديث ، لترى كم دهمتها المفاجآت التي لم تكن في الحقيقة مفاجأة » بل لبثت كل واحدة منها تغزل خيوطها وتنسج مؤامراتها أعوامًا طويلة ، ونحن عنها غافلون أو كالغافلين .. لأننا ربما عرفنا شيئًا مما يدير لنا في سواء الليل ، لكننا نسهو ونغضي انشغالنا بما بناه لنا الخيال في رؤوسنا ، حتى إذا ما أصبح علينا صباح باغتتنا المفاجأة التي لم تكن قد ولدت منذ لحظ ، بل ظلت هناك تبيض وتفرخ في صدور مديريها أو في جحورها لتباغتنا وكأنها بنت لحظتها [2] فهل مثل هذه الدولة ـ بهذا الشكل ـ مؤسسة وطنية

---

(١) نقول المسماة بالعربية لأن عروبة هذه الدول ترجع لمجرد أنها عضو في جامعة الدول العربية لها حق تعطيل القرارات وتمزيق الصف ، لكن بعض هذه الدول لا تعرف بالعربية في التعليم ، ولاسيما الجامعي . مع أن بعضها مستقل شكلاً منذ ربع قرن إلا ان التعريب فيها متعثر واللغة الأجنبية هي السائدة ولها دعاتها الأقوياء المتمكنون من الإعلام والتربية بواسطة إدارات هذه الدول !! .

(٢) جريدة الأهرام : العدد الصادر بتاريخ ١/ ١١/ ١٩٨٨م من مقال بعنوان : (العروبة موقف ٣) .

صادقة الأهداف والولاء صحيحة التركيب ؟ .

١٧ - أتعتبر بحق دولة ، تلك التي يدرك أفراد كثيرون من شعبها أفضل مما تدرك ، ويبصرون أعمق مما تبصر ، ويرقبون المستقبل مسلحين بثوابت في أبجديات الصراع الحضاري أفسح كثيرًا مما ترقب ؟ !! .

ويزداد عجبك من أمر هذه المؤسسة عندما تراها تضيق بهؤلاء المدركين المبصرين ، وتستهزئ بهم وتجرِّئ عليهم صغارها وسفلتها من باعة الضمائر والأقلام .. !

وبدلاً من أن تضع يدها في يد المبصرين المخلصين ، وتوفر لهم الإمكانات والشعور بالكرامة ، تلعب ببعضهم وتسعى لتحويلهم إلى أجزاء من كيانها المتهرئ فيتحول إلى ترس في الجهاز المريض الذي يمضي إلى حتفه محفوفًا بالهتافات والتصفيق والشعارات !!

وبإيجاز لنقدم هنا في هذا المقام (جدولة) مبدئية متخيلة لأهم الفروق بين خصائص الدولتين : الدولة الطبيعية الحقيقية ، والدولة الصناعية المزيفة .. فلعل هذا ما يعين على تحديد الأمور ..!!

م	الدولة الحقيقية	الدولة المزيفة
١	ولدت بتطور داخلي وبتكافؤ بين المستوى الحضاري والصعود السياسي .	ولدت بعوامل خارجية وبدون تكافؤ بين المستوى الحضاري والتسلط السياسي .
٢	تستمد وجودها من الشعب والعقيدة	دولة يستمد الشعب وجوده منها
٣	أمن الشعب أولاً والوطن فوق الدولة	أمن الدولة أولاً والدولة فوق الوطن
٤	الإنسان أغلى رأس مال	الإنسان أرخص سلعة
٥	الدين واللغة والتربية والتاريخ لا مساومة عليها .	البيع بالتقسيط حتى لا تفتضح الدولة .
٦	توفير ضرورات الحياة قرار سياسي ومصيري وجزء من السيادة .	المساومة على الضرورات وتعريض الشعب للموت والذل .
٧	العلم مخدوم .. ليخدم الجميع .	العلم خادم موجه .

٨	القانون يحكم الجميع .	القانون يحكم الضعفاء .
٩	دولة تحمي وتخدم وتحكم .	دولة تُحكم وتُحمى .
١٠	الشرطة تخدم وتحمي	الشرطة تُحكم وتُحمى .
١١	الديمقراطية تكامل لمصلحة الوطن .	الديمقراطية صراع لمصلحة الدولة .
١٢	الوزراء سلطة حقيقية .	الوزراء سلطة شكلية .
١٣	كرامة المواطن من كرامة الوطن .	انتهاك كرامة المواطن بحجة حماية الوطن من المواطن .
١٤	النسبة مقبولة بين أقوال الدولة وأفعالها .	الدولة كاذبة والشعارات بديل ذهني للحقائق ولا نسبة بين الأقوال والأفعال .
١٥	الرأي الآخر صمام أمان للدولة .	الرأي الآخر عدو للدولة .
١٦	الحاكم ممثل الشعب لدى الدولة ، ويخرج من الحكم بإدبار الشعب عنه .	الحاكم أكبر أجزاء الدولة ولا يخرج من الحكم إلا بإقبال الموت عليه .

١٧	أقرب أبناء الشعب إلى الدولة المخلصون للوطن والأكفاء .	أقرب أبناء الشعب إلى الدولة المخلصون للحاكم (الولاء قبل الكفاءة) .
١٨	الحاكم زاهد متواضع مؤمن محبوب يحترم النظام والقانون .	الحاكم مترف مغرور يحتقر العدل والقانون ويؤثر المنافقين .

نماذج من الدول التي صنعتها الفلسفة الاستعمارية في المحيط الإسلامي

مع بداية بزوغ عصر زوال الاستعمار التقليدي عقدت الإمبراطوريات التي تكاد الشمس تغرب عنها مؤتمرات علنية وسرية لدراسة أفضل وسائل التعامل بالنسبة لمصالحها مع الأوضاع العالمية الجديدة التي أصبحت ترفض الاستعمار المباشر بالقوة والإكراه .

وقد تمخضت هذه المؤتمرات والدراسات عن هذا التخطيط للنظام العالمي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية !!

فبدلاً من مظلة استعمارية واضحة مفروضة بالقوة ، وصاية أو حماية ، أو انتدابًا ، تبعثر هنا وهناك دولاً تفتقد المقومات الأساسية للدول بحيث تكون بطبيعتها وبضعف بنائها في حاجة ماسة إلى الدول الاستعمارية فكريًا واقتصاديًا وعسكريًا .

إن الاستعمار في هذه الحالة سيكون مطلوبًا لا طالبًا ، ومرغوبًا لا مفروضًا ، وبدون وجود جيوش استعمارية تشكل عبئًا ماديًا ونفسيًا على الدولتين المستعمرة والمُستعْمرَة ، بل بتهافت تقف

الدول المستقلة (!!) ذليلة على أعتاب المستعمرة لتمنحها القروض القاتلة والقمح البطيء !!

ولقد ذهب الاستعمار يقسم الخريطة العالمية والإسلامية ، بخاصة تقسيمًا بالغ التعقيد ، ففي داخل القارة السوداء ـ أفريقيا ـ دول تابعة للأمم المتحدة تعيش فكريًا واقتصاديًا على فتات المائدة الاستعمارية بينما يمتص الاستعمار في كل يوم بعض مقومات حياتها .

وفي العالم الإسلامي شقَّ ـ على مراحل ـ بعض الأجزاء الجغرافية المتناقضة ليسمح لها بإقامة كيانات إسلامية تحمل في أحشائها جراثيم التناقض والمرض ، ومن هنا فإن دولة (باكستان) لم تلبث أن انقسمت إلى دولتين ، بإضافة كيان كبير هزيل جديد (بنجلاديش) ، بينما تنفرد الأكثرية الهندوسية بالمسلمين ، تفتك بهم وتنشئ الأحزاب المتعصبة التي تضع في برامجها الانتخابية إبادتهم أو طردهم من الهند أسوة بمسلمي الأندلس !!

أما في المحيط العربي فقد افترست القوى الاستعمارية الخريطة الجغرافية وجعلت من أكثر بلاد الشام والخليج قطعًا متفاوتة لا

تمتلك ـ بحالتها الدولية الراهنة ـ أدنى مقومات البقاء !!

وأعتقد ان حرب لبنان الطائفية التي زادت عن اثني عشر عامًا ، والتي هدمت كل مقومات الدولة وحولتها إلى طوائف مسلحة متناحرة فكرًا وسلاحًا وولاءً .. هذه الحرب نموذج مبكر للنهج الاستعماري في إقامة الدول !!

وقد مسخت شخصية الدولة الفلسطينية الشامية من الوجود وظهرت إلى الوجود دولة (الأردن) التي يجتمع أفرادها تحت علم واحد ودستور واحد لكن أكثريتهم تحن إلى الدولة الأولى (فلسطين) ويخشون أن تكون الأردن بديلاً لها .. !!

وإذا التفتنا إلى الخليج ، وجدنا عجبًا فنحن نشعر كأننا نعيش عصر أمراء الطوائف في الأندلس بكل ملامحه ،فبعض هذه الإمارات تصر على مزج كلمة « دولة » باسمها وكأنها جزء من هذا الاسم ،وبعض هذه الإمارات لا تزيد مساحتها ولا عدد سكانها الذين يحملون جنسيتها على بعض المدن الصغيرة الموجودة في أكثر الدول الطبيعية (!!) ومع ذلك فلكل دولة سفارة في كل ـ أو معظم ـ بلاد العالم ولها وزراء يعتقدون أنهم مثل وزراء أمريكا ،

وبريطانيا، والصين، ويقابلونهم مقابلة الندِّ للندِّ !! .

ولقد أصبح شعار « الدولة » باهظ الثمن ،وحتى جامعة الدول العربية أصرت العقلية الاستعمارية على احتفاظها لهذه الكيانات بكلمة (دول) ضمانًا لعدم وقوع (وحدة) حقيقية تقفز بهذه الدول إلى المستوى الجدير بمصطلح (الدولة) !!

« إسرائيل واليابان نموذجان للدولة الحقيقية »

أما اليهود فقد نجحوا ونجحت القوى الصليبية المؤيدة لهم في أن ينشئوا لأنفسهم وسط هذه الفوضى دولة خاصة بهم يقيمونها ـ لذكائهم وخبرتهم ـ على قواعد الدولة الطبيعية الصحيحة ، ومن ثَمَّ تصبح هذه الدولة (إسرائيل) التي كان العرب ـ حتى كبار ساستهم ـ يصفونها بأنها دولة (شذاذ الآفاق) التي ستنتهي تلقائيًا هي الدولة الأقوى التي تقف على قواعد ثابتة ، وتمتلك بوضوح وقوة المقومات الأساسية للدولة الطبيعية .

فهي تمتلك الدين ، والعقيدة ، وتؤمن حتى بخرافات التوراة ، وترفض التجرؤ عليها ،أو نقدها باسم (العقلانية) أو (الحداثة) أو (العصرنة) !!

بل تسمى نفسها ـ متحدية كل العرب والمسلمين والمنهزمين ـ باسم نبيها (يعقوب) عليه السلام !! .

وهي تمتلك (اللغة العبرية) التي تفرض تعليم الطب والهندسة وكل العلوم الإنسانية والتكنولوجية بها ، ولا تسقط فيما سقطت

فيه جامعات العرب ـ ومنها الأزهر والجامعات الخليجية ـ من اعتماد اللغة الإنجليزية لغة للعلوم التطبيقية ، بينما يعتمدون اللغة الفرنسية في تونس والمغرب .

وهي تمتلك الديمقراطية الحقيقية وتحسن تسخيرها لخدمة أهدافها الثابتة ، بل وتوجه سياستها العالمية ـ كذلك ـ دون مدارة لخدمة كل يهودي في الأرض .

لقد كان اليهود ـ كما ألمحنا واضحين مع سنن الله في قيام الدول والحضارات ، فأقاموا دولتهم على المقومات الصحيحة للدولة ، وتمسكوا أشد التمسك بالثوابت التي تحفظ للدولة ذاتيتها وتميزها الحضاري .

وعندما هزمت اليابان في الحرب العالمية الثانية ، بعد ضرب أمريكا لهيروشيما ونجازاكي بالقنبلة الذرية ، وأعلن إمبراطور اليابان المنهزم (هيروهيتو) استسلام اليابان في (١٥ أغسطس ١٩٤٥م) وفرض ذلك على اليابانيين الذين كانوا يرفضون الاستسلام قبلت اليابان كل الشروط الأمريكية الاستسلامية ، إلا الشروط التي تمس الثوابت اليابانية وعلى رأسها (الدين) ،

و (اللغة اليابانية) ، وشخص الإمبراطور المقدس ، كما رفضت أي تدخل في (التاريخ الياباني) من قِبَلِ الإدارة الأمريكية !!.

هذا بينما تتدخل إسرائيل الآن في تعديل المقررات الدينية والتاريخية لبعض البلاد العربية ، بل وتفرض إلغاء بعض نصوص القرآن من المقررات المدرسية !!

ولهذا نجح إمبراطور اليابان المنهزم (هيروهيتو) في الوصول باليابان إلى دولة عظمى تهزم أمريكا في المجال الاقتصادي والعلمي ، بينما سقط أبطال الشعارات وحكام الدول المستقلة الذين يساومون على ثوابتهم ويبيعون دينهم ، ولغتهم ، وأركان حضارتهم في أسواق المساومة السياسية والاقتصادية !! .

إن اليابان مثل إسرائيل ، تعرف قيمة الثوابت ، أما الذين يصنع الاستعمار الماكر لهم بعض الدول ـ أو (المدينة الدولة) CITY STATE ـ فهم مستعدون لبيع كل الثوابت وكل ثروات الأمة ، وكل تراثها المعماري ، والأدبي ، والفني ، والإبداعي مقابل أن يشعروا بزهو كاذب وبلحظات استعلاء خادعة ... ولم لا ؟ أليسوا دولة ؟ !!

لكن سنة الله لا تتخلف ، فحتى لو اجتمع العالم كله ـ لظروف خاصة ومصالح عابرة ـ للدفاع عن الكيانات التي لا تحمل المقومات المؤهلة للبقاء وصناعة الحضارة فسوف يكون مصير هذه الكيانات وأصحابها وشعوبها ـ ما لم تتدارك اللحظة التاريخية ـ نفس المصير الذي أصاب أمراء الطوائف في الأندلس ، وما أصاب الملوك وأبناء غرناطة بعد سقوطها (١٤٩٢م ـ ٨٩٧ هـ) .

نعم أنهم دول .. لكنهم ـ مع ذلك ـ غثاء كغثاء السيل ، وقد رضوا بالحياة في المسكن الهش المظلم الذي بناه لهم عدوهم ، بل وفرحوا به ، مع أنهم يعلمون أنه لم يؤسس على المساواة ، والأخوة ، والشورى ، والتقوى !!

لقد أسست هذه الكيانات المغلقة بديلة للكيانات الأعظم في التاريخ الإنساني كله ... بديلاً لدولة الأخوة الإسلامية المنفتحة العالمية .. بديلاً للدولة التي قامت على الفكرة (العقيدة) التي لا تتجاوز الأرض ، والجنس ، واللون ، والمادة الفانية ..

الدولة التي لا تفرق بين المؤمنين بعقيدتها فواصل الجنسية ، والحواجز الجمركية ونعرات الوطنية والقومية ، بل هي ترحب

بكل من يأتيها مؤمنًا بأهدافها منطلقًا من ثوابتها ملتزمًا بشريعتها .. إنه فورًا يحصل على جنسيتها [١] ويصبح مثل كل أبنائها الذين تبوءوا الدَّار والإيمان من قبلهم !!

إنها لم تكن (فكرة) تجمع الناس على (أرض) محددة لغايات روحية ومعنوية وأخلاقية على حساب (المقومات المادية) للدولة .. كلا بل إنها استوفت كل الشروط والمقومات الدولية .. مادية ومعنوية .. استوفت الشروط بعقيدة الذين انضموا إليها بفكرهم وإرادتهم وكدحهم .. فهي دولة عقيدة وجهاد من أجل العقيدة .

واستوفت بالاختيار الحر لا بالقهر الوراثي ، أو بالانتماء العشوائي ، أو (بالحقوق) المكتسبة لمجرد النشأة والانتماء ، بل استوفتها (بالواجبات) التي ولدت حقوقًا ، و (بالعمل) الذي أفرز إنتاجًا ، وبالفرد المنسجم في داخله مع محيطه الذي يسعى

---

(١) وكل يهودي يصل إلى إسرائيل اليوم يحصل (فورًا) على الجنسية وعلى كل الحقوق التي يتمتع بها رئيس الوزراء ، بينما يطرد فورًا من بعض الدول الخليجية أي عربي مسلم خدمها ـ ولو عمره كله ـ إذا انتهى عمله !! .

مضحيًا بكل ما يملك في سبيل تكوين دولة العقيدة القائمة على أعمدة (الأخوة) ، و (الشريعة) ، و (الدعوة) للأقربين والإنسانية جمعاء !! .

وإذا كانت المقومات المادية الحقيقية هي الأرض ، أو الإقليم الجغرافي الذي يسمى بالوطن ، و (الناس) ، أو الإنسان الذي يعيش في هذا الإقليم ويرغب في الدفاع عنه والانتماء إليه ، و (السيادة) أو السلطة العليا أو العامة ـ SAUVERAINETE) فإن الدولة الحقيقة (الإسلامية) ليست فكرة طرباوية ، بل هي دولة واقعية بكل معنى الواقعية اللائقة بإنسانية الإنسان ، ومكانته ، ورسالته ..

وفي كل الدول التي أنشاها الإسلام ،وهي كثيرة جدًا في التاريخ الإسلامي على مساحة الرقعة الإسلامية ، توافرت هذه الشروط ، ولكن هذه الشروط قد تكفل صناعة دولة عارية من الروح ، والضمير ، والفاعلية ، والرسالة الخالدة ،أما دولة الإسلام فقد توافرت لها الأعمدة الأخرى التي أصبحت ـ إلى جانب ذلك ـ دولة تعبر عن الإنسانية الحقة وتحقق الخلافة عن الله في الأرض ، وتسمو بالإنسان الفرد والجماعة إلى أرقى ما يستطيع أن يصل إليه .. إنها

تستثير فيه كل إمكانية الخلافة وكل كوامن فطرته الذكية ..

ومن أغرب الغرائب أن يكون العرب والمسلمون الذين قدموا النموذج الأعلى لهذه الدولة في التاريخ النبوي والراشدي ، وقدموا نماذج إسلامية أخرى رائعة تقترب من النموذج الأعلى .. ومن أغرب الغرائب أيضًا أن يكون هؤلاء أنفسهم هم الفئران التي يُجرِي عليها الاستعمار تجاربه المعملية الآن ، ومنذ أكثر من نصف قرن لتقديم نموذج لدولة يُرَاد لها أن تشيع وتبرز في إطار هذا النموذج الذي ذكرناه ... دولة قد تملك كل المقومات المادية ، بل قد تملك رصيدًا مبعثرًا من المقومات المعنوية ، ومع ذلك فإنها لا تقدم شيئًا مما تقدمه الدولة الطبيعية .. بل إن همها الأكبر ـ من حيث تدري أو لا تدري ـ أن تحقق للاستعمار كل ما حاول تحقيقه وبعض ما عجز عن تحقيقه . إنها تدمر الثوابت ، وتقهر الإنسان ، وتعلمه العبودية ، وتدربه على قبول الذل ، وتقتل فيه الإبداع ، ونستورد له أبشع وسائل التعذيب ،وتحول عملته العالمية إلى عملة محلية ، وتصرفه عن زراعة أساسات حياته ، وعن الإبداع الصناعي ، وتحوله إلى إنسان كسول ومستهلك .. وكل ذلك وغيره

يمضي وسط ضجيج هائل من الشعارات والوعود الكاذبة .

وحتى مجرد الحضاري العاقل في إصلاح المسار يعد تمردًا وخروجًا عن الطريق المرسوم !! .

هل الدولة الحديثة
قطع شطرنج في لعبة ثابتة القواعد ؟!

ثمة مؤتمرات استعمارية كثيرة تقاسم فيها أقوياء العالم هذا الكوكب الأرضي الصغير كما يتقاسم الآكلون قصعة الطعام .

ومن المؤتمرات الشهيرة في هذا المجال مؤتمر سايكس بيكو ، ومؤتمرات طهران ، وبالطا ، وبوتسدام التي اقتسم فيها ـ ظاهريًا روزفلت ، وتشرشل ، وستالين العالم .

وأنا على يقين بأن مؤشرات القمة الأوربية الأمريكية لديها تقسيم آخر لمجموعة الدول الواقعة في المحيط الإسلامي العربي ، ولدول العالم الثالث الذي تعتبره الأرض البكر لامتداد حضارتها وعقيدتها ، ولكن قرارات هذا التقسيم غير معروفة (سرية) ، وإن كانت المؤشرات كلها لا تحوج إلى إعلان ، فطلاب الدراسات العليا في العلوم السياسية الذين أوتوا حظًا من الفقه الحضاري وإدراك ثوابت الصراع العالمي ، يستطيعون إدراكها : أهدافًا ووسائل .

وإلى جانب طلاب العلوم السياسية هناك مخلصون كثيرون مثقفون يستطيعون إدراك هذه المخططات من خلال قراءتهم للفكر .

وحسبي هنا أن أقدم نموذجًا واحدًا من الأفكار الاستراتيجية المطروحة والتي تؤكد لنا أننا قادرون على إدراك أبعاد اللعبة السياسية الدولية التي تمارس ضدنا في شرقنا العربي والإسلامي .

ففي عنوان فرعي واضح من كتاب (السياسة الدولية والشرق الأوسط)[1] ١٩٨٧م لمؤلفه (ل . كارل بروان) ، يوضح العنوان هكذا بكل وضوح : « قواعد لعبة المسألة الشرقية » ، وتحت العنوان يقول المؤلف بكل ثقة : « تتميز لعبة العلاقات الدولية المتواصلة في الشرق الأوسط على الأقل منذ أوائل القرن التاسع عشر بالقواعد التالية .. »[2] .

ومن ثَمَّ وبعد ذكر هذه المقدمة الواثقة في وجود لعبة لها قواعد

---

(١) ترجمة عبد الهادي جيار ، نشر دار الشئون الثقافية بغداد ط١ نشر ١٩٨٧م ، والاسم الكامل للكتاب هو السياسة الدولية والشرق الأوسط : قواعد لعبة خطيرة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

ثابتة ضد الشرق الأوسط يورد المؤلف عددًا من هذه القواعد نختصرها في القواعد التالية [١] .

١. يتحد العديد من اللاعبين السياسيين الإقليميين وغيرهم ، وينقسمون في أنماط متغيرة من التحالف .

٢. تميل أنماط عقد التحالفات وحلها نحو الشمولية ، ويدخل الأشخاص الخارجون في العملية حتى يتورط الجميع وتتطور الثنائية وتتحول إلى تعددية الأطراف .

٣. تتميز دبلوماسية المنطقة بقراءة مركبة مبالغ فيها لقضايا تبدو صغيرة واهتمامات دولية رئيسية ، فالحدود التي تقسم القضايا المحلية ، والقومية ، والإقليمية ، والدولية غير واضحة المعالم .

٤. تتخذ المبادرات الدبلوماسية المتولدة داخل المنطقة ـ أكثر من أجزاء أخرى في العالم ـ بغية معرفة رد الفعل في العالم الخارجي ، فالشرق الأوسط من أكثر الأنظمة الدبلوماسية « اختراقًا » في العالم .

٥. النظر إلى اللاعبين الإقليمين وفق معايير التحالفات خارج

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

المنطقة فتعتبر الدول (س) أفضل صديق لنا ، أما الدولة (ص) فهي « مخلب القط لعدونا » .

٦. إن تلك الميزات الخاصة تجعل الفاعلين السياسيين في الشرق الأوسط ينزعون إلى تفضيل أفعال وأساليب سياسية منها :

أ - سياسية الأمر الواقع المحدودة أو « الانتزاع السريع » ، والوجه الآخر لذلك هو النفور بالمراوغة من قبول أي تغيرات في حالة الأمر الراهن مهما كانت صغيرة .

ب - عدم الرغبة في تقسيم النزاع أو المواقف التساومية إلى قضايا رئيسية وفرعية ، وكل شيء ليس متداخلا مع بعضه والبعض الآخر فحسب ، وإنما هناك تردد في وضع أسبقيات ، سواء كان ذلك على أساس التسلسل أم الموضوع ، واستنادًا إلى ذلك توجد ندرة في نقاط « التغيير الصغير » الذي يمكن أن يقبل به أي طرف من أجل المبادرة بالمساومة أو كسر حالة الجمود .

ج - تفضيل قويّ للسياسة الارتجاعية أو الضرب المعاكس دبلوماسيًا (تشجيع المبادرات المحددة مثل حالة الانتزاع السريع والمناورة مع الأطراف الأخرى ، لتتخذ موقفًا يمكن بعد ذلك

استثماره) تفعيل بارز لإجراء مساومة سياسية دقيقة من خلال استخدام أطراف أخرى تصبح بسبب هذه العملية متورطة بشكل دقيق ، وغالبًا ما تصبح ضامنة للترتيبات التي يتم التوصل إليها .

هـ ـ براعة مهمة في « التكتيكات » ، غير أن اهتمامًا أقل يمنح للاستراتيجية وغالبًا ما تضيع معالم التمييز بين التكتيك والاستراتيجية .

ويوجد ميل إلى ملاحظة أنه غالبًا ما تضيع معالم التميز بين التكتيك والاستراتيجية عندما يسمى « مقدار الصفر »[1] حيث يجب أن تكون المكاسب التي يحققها أحد اللاعبيننا جمة بالضرورة عن خسارة متناسبة متساوية للاعب آخر أو لاعبين آخرين (فكأن الأمر دائمًا في حالة خسارة أو توقف) .

وتطبيقًا لهذه القواعد التي تدور حولها لعبة إنهاك دول العالمين الإسلامي والعربي بمشكلات دائمة وعدم إعطائه الفرصة كي

---

(١) استخدم المؤلف عبارة « zore – sum » لتأكيد مبدا التناسب الطردي بين ربح طرف وخسارة طرف آخر ، أي عندما يكسب الطرف « س » الجولة يخسر الطرف « ص » بالضرورة هذه الجولة (المرجع السابق ص ٢٦) .

يبدع شيئًا أو يسير في طريق الوحدة أو التطور الحضاري الذي يحتاج إلى تكامل وتكتل في مواجهة التكتلات والأيديولوجيات العالمية المطروحة ـ تطبيقًا لهذه القواعد تعاونت أمريكا وأوربا على زرع إسرائيل في القلب العربي ، كما تمت زراعة الأحزاب العلمانية والشيوعية والقومية والإقليمية ؛ بل وأحزاب عبادة الأشخاص كالناصرية ...

وعلى المستوى النظري والعربي جاءت فترة إقامة (جامعة الدول العربية) لتؤكد هذا الاتجاه إلى فرض الشلل ،خضوعًا لقواعد اللعبة الدولية التي تحكم المسألة الشرقية .. إنها مجرد تجمع (لدول) تجمعها (روابط) و (مصالح) مشتركة وليس في بنيتها ولا تركيبها النظامي ما يوحي إطلاقًا بأي احتمال (وحدة) ، بل إنه (وكأنها غير موجودة) تقام أشكال من الوحدة بين مجموعات من الدول الأعضاء فيها ، والذين تضمهم أرض واحدة ، ومع نسبية هذه الأشكال إلا أن مازال يهمنا التصريح به هنا هو أن هذه الأشكال تعني أن بنية الجامعة المسماة (بجامعة الدول العربية) لا يُعَوَّلُ عليها في تحقيق وحدة !! .

ولهذا تجري المحاولات الإقليمية للوحدة بعيدًا عنها !! .

وتبدأ قصة تكوين هذه الجامعة في ظروف تحتاج إلى تحليل ودراسة !!

فبينما كانت رحى الحرب العالمية الثانية دائرة على أشدها ، وأعلنت بريطانيا عن عطفها على أفكار استقلال بعض الأقطار العربية ، وترحيبها بِأيّ عملٍ في اتجاه الوحدة العربية ، وجاء هذا الإعلان على لسان وزير خارجيتها (إيدن) في ٢٩ أيار / مايو ١٩٤١م ، وكرره في ٢٤ شباط / فبراير ١٩٤٣م[١] .

لم تبدأ الحكومات العربية البحث الجاد في هذه الفكرة (البريطانية الأصل) إلا بعد الإعلان الأول بعامين ، حيث تقدم نوري السعيد في ١٤ كانون الثاني / يناير ١٩٤٣م إلى بريطانيا بمذكرة متضمنة مشروعًا اتحاديًا (وما دخل بريطانيا بالموضوع ؟ !!) . بعد تصريح (إيدن الثاني) اقترح نوري السعيد عقد مؤتمر عربي لبحث الموضوع ، غير أن وزارة الخارجية البريطانية رفضت هذا الاقتراح خشية أن

---

(١) لتلاحظ أنه في هذه الفترة كانت اللمسات الأخيرة توضع لقيام دولة إسرائيل ، وبداية مشروع تجميع يهود العالم ، ولنلاحظ التركيز على فكرة الوحدة العربية بمفهومها الأيديولوجي .

يستغل من أجل الدعاية الصهيونية وإثارة الجماهير العربية ضد بريطانيا .

ثم قادت مصر سلسلة من المشاورات الثنائية والجماعية منذ يوليو ١٩٤٣م أسفرت عن وجود اتجاهين مختلفين حول شكل الوحدة العربية المطلوب تحقيقها .

الاتجاه الأول : يدعو إلى الوحدة الفيدرالية أو الكونفدرالية بين الأقطار العربية وهو الاتجاه الذي تبنته أساسًا الحكومة السورية ودافعت عنه بحماس واضح ، وهذا النوع من الوحدة يتضمن سلطة عليا تفرض إرادتها على الدول المنضمة إليها فتفقد قدرًا من سيادتها واستقلالها داخل الدولة الموحدة ، وهذه الدرجة ترتفع في حالة الفيدرالية وتنخفض في حالة الوحدة الكونفدرالية ، وبالطبع فمثل هذا الاتجاه مرفوض من بريطانيا وأمريكا ، ودوليًا لمخالفته لقواعد اللعبة التي تحكم المسألة الشرقية !!

أما الاتجاه الثاني : فقد اكتفي بالدعوة إلى شكل يسمح بتعاون وثيق بين الأقطار العربية المنضمة له ويحافظ على استقلالها وسيادتها (أي تشرذمها وضعفها وتآكلها) وهذا ما فضلته بقية الدول العربية عدا مصر التي ظلت بعيدة عن تأييد أي من الاتجاهين رسميًا ..

وفي قصر الزعفران بالقاهرة اجتمعت اللجنة التحضيرية يوم ١٧ / آذار / مارس ١٩٤٥م للنظر في مشروع الميثاق أعدته اللجنة الفرعية وتم توقيعه يوم ٢٢ آذار مارس ١٩٤٥م ودخل حيز التنفيذ يوم ١١ مايو من العام نفسه [١] .

وقد وافق المجتمعون في اللجنة التحضيرية على اسم الجامعة بعد تنقيحه من « الجامعة العربية » إلى « جامعة الدول العربية » طبقًا لمصلحة التمزق ودول الطوائف الهزيلة .

وحول المتغيرات التي أبرزت جامعة الدول العربية إلى حيز الوجود تقول إحدى الدراسات المهمة : لقد نشأت الجامعة نتيجة تفاعل عقيدة النظام مع البيئة الدولية ومع هياكل النظام العربي ، إذ كان التيار القومي متصاعدًا ودافعًا نحو قيام وحدة عربية ترضي تطلعات أجيال متعاقبة في الوطن العربي ، بينما كانت القوى الاستعمارية والأوربية تسعى بالاشتراك مع النظم العربية القائمة وقتئذ للتعجيل بإنشاء شكل من أشكال التنظيم الإقليمي يحتوي تطلعات هذا التيار دون أن يحققها ، ولذلك برزت الجامعة العربية

---

(١) أحمد فارس عبد المنعم : جامعة الدول العربية ١٩٤٥ ـ ١٩٨٥م / ص ٩ ، ١٠ مركز دراسات الوحدة العربية ط١ ١٩٨٦م .

إلى الوجود تحمل معها تناقضات ثلاثة متغيرات هي : فكر قومي ، وتدخل حاد من البيئة الدولية ، ومنطق القطرية والسيادة الوطنية !!

إنها ليست منظمة قومية فوق الدول ؛ لأن ميثاقها أكد السيادة القطرية ولم يأخذ بالأغلبية قاعدة في التصويت ، والجامعة تعتبر أكثر المنظمات الإقليمية تعرضًا لتأثيرات البيئة الدولية وتدخلاتها المستمرة بسبب عقيدة النظام الذي تنتمي إليه ، فهي ترضخ لمحددات تفرض عليها أن لا تصدر عنها قرارات تتناقض مع عقيدة النظام العربي ولمحددات تفرضها الدول لكي لاتتمادى الجامعة في التعبير عن الفكر القومي ، أو الحد من صلاحيات الأقطار الأعضاء وسيادتها ، ولتدخلات متواصلة من البيئة للتأثير على التوازنات والتحالفات العربية .

هذه هي قضية (جامعة الدول العربية !!)

وفي شرق آسيا صنعوا دولة سنغافورة ، وأُبِيْدَ الفلبين الذين كانوا ذات يوم أغلبية وزرعت جيوش تنصير ضخمة مزودة بالمطارات والموانئ الخاصة ومليارات الدولارات في أكبر دولة إسلامية هي إندونيسيا .

وقسمت الهند إلى دولتي الهند وباكستان ، ثم قسمت باكستان إلى دولتي باكستان وبنجلاديش .

ثم كانت حرب إيران والعراق ، ثم حرب الخليج بكل ما ظهر من أبعادها وما سيظهر إن عاجلاً أو آجلاً مما يمثل خطوة من خطوات الأسلوب الدولي الجديد لتطبيق قواعد اللعبة التي تحكم المسألة الشرقية .. أي بالدرجة الأولى تحكم حركة المليار مسلم المنقسمين إلى نحو خمسين (دولة) أعضاء في كل المحافل الدولية !! .

- إنهم بحق كثير ...

- لكنهم غثاء كغثاء السيل !! .

الدولة المجزأة . ضد الحضارة !!

تتجه الدولة الطبيعية - بطبيعتها - نحو الوحدة في المادة ، والنظم ، والفكر والشعور ؛ صعودًا إلى وحدة الدولة الحضارية !! .

أما الدولة المزيفة التي صنعها الاستعمار على عينه ،فهي تتجه - بطبيعة تركيبها المتناقض - نحو التجزئة ، والتقسيم ، والصراع على الحدود مع الجيران (!!) !

جيران العقيدة والحضارة والمصير المشترك !!فما إن تخرج دولة الاستقلال المزيف من مشكلة حدودية ، حتى تجد نفسها في مواجهة مشكلة بئر مشترك ، أو صراع على منطقة خصبة ، أو منطقة مشتركة غير قابلة للتقسيم !! .

وفي مستوى الفكر واللغة والعقيدة تتجه دولة الاستقلال المزيف زائدة إلى التقسيم والتجزئة ، حيث وضع الاستعمار في تركيبها نفورًا من عقيدة الوحدة والتوحيد الإسلامية ، وبالتالي - فحتى ولو رفعت شعار الإسلام في دستورها كدين رمزي للدولة فإنها - عمليًا - تتجه إلى تنازلات بين الحين والحين لعقائد الأقليات

الأخرى ؛ لأنها تخجل أو تعجز عن التمسك العملي والحقيقي بعقيدة التوحيد وحضارة الوحدة الإنسانية .

وكثيرًا ما تجد الدولة المزيفة نفسها مضطرة لإخضاع عقيدة الإسلام الجامعة للعقائد والنظريات التمزيقية الفاسدة المضادة التي تطرح نفسها بتأثير ضغوط سياسية أو اقتصادية ، أو خضوعًا لقوة طارئة أصبحت تتمتع بها الأقلية غير الإسلامية بمؤازرة قوى أجنبية !! .

وهكذا فهي تتأرجح مائلة من سقوط إلى سقوط ومن تنازل إلى تنازل ؛ لأنها تفتقد عناصر التماسك ، والإدارة ، والفاعلية ، والاستجابة الحضارية الملائمة للتحديات !! .

بل كثيرًا ما يقع - وقد وقع فعلاً - أن أصبحت هذه الدولة التي صنعها الاستعمار على عينه - تحت مسمى استقلالي لا دعائم حقيقية له - أنكى ما تكون على المخلصين المنتمين ، وأعدى ما تكون لثوابت الأمة ، وأقرب ما تكون للمنسلخين عن حضارة الأمة .. إنها تعدُهم ، وتُمنيهم ، وتُمكنهم ، وتمنحهم المواقع الجوائز والصفحات في أقوى الجرائد والمجلات !!

فهل يمكن أن يكون هذا مقبولاً في لغة المنطق والعقل والمصلحة على الأقل ؟ ! .

كيف يمكن لهؤلاء المنطقيين والعقلاء والباحثين عن مصلحة الوطن في الحاضر والمستقبل أن يؤمنوا بجدوى هذه الدولة وأن يتكيفوا معها .. ؟ !!

وفي عصر تتجه فيه الحضارة المعاصرة إلى التكتلات الكبرى والقوى السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية المتحدة والقادرة على مواجهة القوى الأخرى ـ ها هي (دولة التجزئة) حسب تعبير الباحث (منير شفيق) ـ تتجه إلى الالتحام بعوامل التفتت وعناصر الانسلاخ ، ثم تقاوم بضراوة ووحشية عوامل التوحيد ، وعناصر الانتماء والانبعاث !! .

ومن أعجب العجب أن ترفض هذه الدولة الصناعية كل عوامل التوحد والتقدم ما دامت هذه العوامل ذات صلة بثوابت الأمة التي عَمَّقَ الاستعمار في وعيها أن ترفضها بكل حدة وقوة ، وأن تثير حول أصحابها الشبهات والشكوك ،وأن تتعامل معهم بأساليب خارجة عن نطاق الإنسانية ، وأن ترفض معهم أية صورة

من صور الحوار والتفاعل !! .

لقد أدرك الاستعمار - من خلال لجانه وندواته ومراكزه الاستراتيجية - أن الإسلام هو (منهج التوحيد) لهذه الأمة .. هكذا كان في الماضي ، وهكذا أثبت عندما التقت الأمة المسلمة حول رايته في بعض مواقعها في الحاضر ..

ومن هنا وضع الاستعمار مخططاته على أساس فكرة محورية ثابتة هي : القضاء على ارتباط المسلمين بهذا المنهج ودفع المسلمين - من خلال مؤسسات ثابتة قادرة - إلى التخلي عن هذا المنهج ؛ بل ومقاومته بضراوة حتى تستمر حلقات التجزئة في التتابع !! وحتى تتشرذم الأمة الإسلامية ويصعب توحدها .. !!

وتكاد مؤسسات الدول الإسلامية التي ظهرت بعد الاستقلال تجتمع حول هذا القاسم المشترك - إلا من عصم ربك - ومن هنا فإنها - بواسطة الإعلام والتربية وأجهزة الأمن - تحرص على محاربة الإسلام وإبعاده عن العقول والنفوس والإرادة ، ونفيه عن الثقافة والحضارة ، وإقامة المؤسسات على أسس غربية بحيث تصبح مدارس الفكر والفلسفة الغربية الأوربية هي النماذج ، وهي الدليل

لفكر الأمة ، أو على الأقل بالنسبة إلى فكر قادتها وأهل الرأي فيها ، وبحيث تحل قيم الحضارة الأوربية الغربية مكان القيم الحضارية الإسلامية ، فتتغير الأخلاق والعادات ، وتتغير أساليب الحياة حتى في المأكل ، والملبس ، والمسكن ، والتربية على أساس الأخلاق ، والعادات ، والأنماط الحياتية الغربية [١] .

إن هذه الجهات المنفرطة عن عقد الخلافة الإسلامية والمسماة بالدول المستقلة والتي يزيد عددها في المحيط الإسلامي عن أربعين (حبة ـ دولة) لم تترك أكثرها حلمًا من أحلام الاستعمار ـ التي عجز عن تحقيقها خلال عقود احتلاله المباشر ـ إلا قامت بتحقيقه ؛ فقد ألغت المناهج الإسلامية من التعليم ، وهمشت المادة الإسلامية تحت تبريرات مختلفة ، وعمدت إلى الانتقاص من قدر العلماء والمثقفين المسلمين ، وأجهزت ببعضهم على بعض ، وتهكمت على ثقافتهم وأشكالهم ، وشوهت التاريخ الإسلامي بإبراز العناصر السلبية فيه ، وكان ديدنهم كما يقول (منير شفيق) طمس سيرة الخليفة العادل وإبراز السلطان الجائر ، وإخفاء صورة القائد

---

(١) منير شفيق : الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر (ص ٦٥) دار طه للنشر لندن الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

المجاهد ، وإظهار صورة الماجن السفاح ، وقد أبعدوا عن الأعين صورة المرأة المسلمة المجاهدة ليضخموا صورة الجواري والقيان ، أو المرأة الخاملة ، كما عمدوا إلى تصفية الهوية الإسلامية الأساسية للأمة من خلال العودة بالشعوب الإسلامية إلى مراحل ما قبل الإسلام .. فرعونية ، فينيقية ،كنعانية ، آشورية ، بابلية وبهذا تصبح الأمة كتلاً بلا هوية ، ويصبح لكل قطر هوية مزيفة لا تنفعه إلا وهو سائر على طريق التجزئة ، والتراجع ، والعقم ، والعجز [1] !! .

إنها لا تنفر من منهج الإسلام ، لأن الاستعمار وضع فيها هذه البذرة الخبيثة فقط ولكن لأن هذا المنهج الإسلامي هو وحده منهج التآلف والتضامن والتوحيد .. منهج المؤاخاة والحب ، ومقاومة ضياع الأمة ، والتشرذم ، والاتجاه إلى مزيد من التفتت بضغط أقليات دينية أو عرقية ، يساوم عليها الاستعمار دولة التشرذم الآيلة للسقوط !! .

وهكذا قامت دولة المجتمع المحدث على التجزئة وتماذجتا فأصبحت بينهما وحدة عضوية ، ثم أصبحتا البناء التحتي الذي تستند إليه عقلية التفرنج ، وفكرية التغريب ، ونهجية الحياة الغربية .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦ ، ٦٧ .

وقد وقف كل هذا في وجه الإسلام والمجتمع الأصلي الذي بقي - من حيث تكوينه الأساسي - نقيضًا لدولة التجزئة ، وللمجتمع المحدث ، ولعقلية التفرنج ، وفكرية التغريب .. وبهذا أصبحت الحرب العقيدية - الفكرية - الحضارية مزدوجة بعد أن قام المجتمع المحدث من حول دولة التجزئة ، فأصبح المجتمع الأصلي يخوض حربه الشاملة ضد القوى الاستعمارية الخارجية كما يخوض الصراع الحاد ضد الفئات المحلية التي أخذت بالحداثة الغربية .. أي المجتمع المحدث ودولة التجزئة [1] !! .

فاستبعاد الإسلام - وهو الأصل الذي التقت عليه الدولة المزيفة مع الاستعمار الحديث - يحقق للاستعمار ولعملائه هدفه الأساسي ، وهو أن يضمن الانحدار الحضاري المستمر للدول المجزأة التي صنعها بطريقة أو أخرى ، وبالتالي تتجه هذه البلاد - في المردود النهائي - إلى الطريق المضاد للحضارة !! .

- إن إنسانها يبقى أرخص إنسان في العالم .

- وإن وقتها وترابها وإمكاناته تهدر في صور من الترف

(١) المصدر السابق ص ٦٦ ، ٦٧ .

والاستهلاك الوقتي والشيئي الاستنزافي ..

ـ ولا يسمح لها بإنتاج سيارة ، أو طائرة ، أو قنبلة ذرية ، أو الاكتفاء ـ عن طريق الإنتاج ـ زراعيًا وصناعيًا .. !!.

ـ وإنما يسمح لها بالتلفيق بأشياء من هنا وهناك لتحسين صورتها أمام شعبها المقهور !! .

ولأنها لا تريد من إنسانها واجبات إلا (الطاعة) السياسية والقناعة الاقتصادية فإنها تلعب (بحقوق إنسانها) كما تشاء ، وتتعامل معه حسب كرمها ومزاجها الظرفي !! .

يجب أن لا نتخيل إطلاقًا أن هذه الدول المجزأة شرائح يمكن أن تلتقي على طريق وحدة عربية ، أو وحدة إسلامية ، أو حتى على أي شكل ذي فاعلية حضارية متحدة في ظل تركيبها هذا .. إنها لم تصمم تصميمًا يسمح بالسير في هذا الطريق .. ولنقارن مقارنة وقائعية محايدة بين الإنجازات الحضارية لهذه الدول فكريًا واقتصاديًا وسياسيًا قبل الاستقلال المزيف وبعده .. لا أقول نقارن بين تركيا بعد مصطفى كمال ، وبين تركيا الخلافة العثمانية فهذه قضية أخرى ، بل يكفينا أن نقارن بين الأوضاع الفكرية الإبداعية ، والاقتصادية ، والسياسية في بعض البلاد العربية قبل استقلالها

وبعده .. ولنركز على مصر ، وسوريا ، وفلسطين ، والأردن ؛ على أساس أنها المجموعة العربية التي تواجه مباشرة التحدي الصهيوني الحضاري ..

ولنقم بحصر كامل لعدد المبدعين في هذه البلاد قبل الاستقلال وبعده[1] .

إن النتيجة معروفة وحسبنا أن نتذكر أسماء المبدعين المصريين في الفكر والثقافة والذرة والصحافة قبل ثورة يوليو ، ثم بعد التأميم الثورة للإنسان المصري المسكين !! .

وحسبنا أن نتذكر قيمة الجنيه المصري بالنسبة للجنيه الإسترليني ، أو الدولار الأمريكي ، أو الريال السعودي قبل الاستقلال الثوري وبعده !! .

ومعروف أن مصر خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي دائنة

---

(١) لنترك جانبًا قضية التعليم الموجه والحصول على شهادات للوظائف الحكومية يتباهى بكثرتها أبطال الاستقلال مع أنها لا تعني إلا الضياع في حلقات التوظيف من أجل الحاجات اليومية والآمال المحدودة فضلا عن خضوع التعليم للهيمنة التغريبية ذات المردود الاستعماري .. لنترك هذه القضية فهي مأساة مستقلة تحتاج إلى دراسات مستقلة تتصل بدور التربية العلمانية والتعليم التغريبي في تمزيق الأمة وتعميق انهيارها وتبعيتها !! .

لبريطانيا بعدد من مئات الملايين من الجنيه الإسترليني ..

لكنها خرجت من عهدي عبد الناصر والسادات مدينة بعدد كبير من المليارات للشرق الشيوعي أولا ، وللغرب الأمريكي ثانيًا .. !! وقد وقعت أخيرًا في قبضة صندوق النقد الأمريكي الدولي ... وما عرفنا أن أحدًا دخل هذا الصندوق ثم خرج منه بجلده ، وشرفه ، ووطنه ، وحضارته !! .

وما يقال في مصر يجب أن يقال في سوريا ، وفلسطين ، والأردن ، وفي أكثر البلاد العربية ، شريطة أن نضع في اعتبارنا حقيقة الارتباط الكامل بين التربية والتعليم ، والإنتاج الاقتصادي والاجتماعي !! .

إنه ذلك الارتباط الذي من شأنه أن يؤدي - عندما تتوافر شروط النهضة وتتحقق الفعالية الحضارية للتربية والتعليم إلى تحقيق معدلات عالية من النجاح الاقتصادي - زراعيًا ، وصناعيًا ، وتجاريًا - وإلى تحقيق التنمية الشاملة الموازية للمستوى العالمي أو المتفوقة عليه ، بحيث يصبح طبيعيًا تأمين الحاجات الأساسية ، والكمالية ، والاستغناء عن الاستيراد ، وحماية المجتمع من التهلكة والاستهلاكية .

إن العلاقة بين التعليم، والتربية، والإنتاج علاقة متكاملة وهذه حقيقة لا بد من التأكيد عليها .. وعن طريق الوعي الكامل بهذه الحقيقة والانطلاق من التربية والتعليم المتضمنين القدر المطلوب من الفعالية الحضارية نجحت اليابان في تجاوز هزيمتها المروعة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥م.

وكان التعليم الابتدائي قبل الثانوي والجامعي هو عمود هذا التعليم وهذه التربية.

ولم تكن الشهادات ولا الإحصائيات الطنانة عن أعداد المتخرجين من التعليم المجاني (!!) المستغرب هو الشعار الذي ضحكت به اليابان (الصادقة مع نفسها) على شعبها !!

بل كان الطريق الذي اتجهت إليه اليابان المحتلة من أمريكا يقتضي الولاء لليابان عقيدة وحضارة، والشعور بأهمية السباق الحضاري، وبدرس الحرب الثانية، والانتماء للعلم، والعمل، والتضحية، والإنتاج، والتدريب المهني التطبيقي، والفعالية الإبداعية .. والمبادرات الفردية والجماعية !!.

وذلك كله بعيدًا عن التركيز المغرض على الفلسفات التغريبية،

والعلمانية ، والألسنية ، والتضليل الإعلامي والتربوي .

وكان طبيعيًا أن تفوز اليابان (المحتلة) في السباق ، بينما سقطت دول (الاستقلال) التي ناضلت وكانت مستعدة للتفريط في كل شيء ما دام (أبطالها) سيحكمونها تحت راية الاستقلال العظيم !!

نعم الاستقلال الذي أدى في المستوى التعليمي والاقتصادي - الذي نحن بصدد الحديث عنه - إلى نتائج مروعة تحتاج إلى لجان منصفة ، لجان غير سياسية ولا إعلامية !! لجان تتقي الله في أوطاننا المنحدرة إلى القيعان ، بينما نحن نلهو ونصفق ونضحك . لجان تقول الحق وحده وتضعه بين أيدي المسئولين عن هذه البلاد !!.

ولهذه اللجان المرتقبة نقدم هذه النتائج المروعة من خلال التقرير الذي قدمه المسئول الأول عن الهيئة المسماة بجامعة الدول العربية ، وذلك خلال فعاليات المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي المنعقد في تونس بتاريخ ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٨٣م) .

يقول أمين عام الجامعة العربية : إن ٧٠٪ من المواطنين العرب لا يزالون يعانون من الأمية ، وما زال أكثر من نصف المجتمع العربي يشكو من نقص العناية الصحية ، وما زال الوطن العربي يعتمد على الخارج للحصول على أكثر من نصف حاجته من

الغذاء ، ولا يستخدم إلا عشر قواه البشرية ،في وقت يتزايد فيه اعتماده على اليد العاملة الأجنبية ، وفي الوقت ذاته يشكو من نزيف حاد في طاقاته العلمية والتقنية [١] .. وبالرغم من المجهود المبذول فقد كان أداء القطاع الزراعي خلال السبعينات يدعو إلى كثير من القلق حيث بقيت الإنتاجية الزراعية في مستواها على أحسن تقدير ، انخفضت مستويات الاكتفاء الذاتي خلال هذه الفترة بالنسبة إلى سائر المحاصيل الزراعية ، وانحط إنتاج الحبوب عمومًا من (٨٤٪) إلى (٦٠٪) وخاصة القمح من (٦٦٪) إلى (٤٢٪) [٢] . فهل هذه الثمار المرة أو النتائج المروعة هي حصيلة هذه العقود من الاستقلال ؟ .

ـ وما معنى الاستقلال إذن وما جدواه ؟ وماذا بإمكان الاستعمار المباشر أن يفعل بنا في القرن العشرين ـ قرن أمريكا وأوربا الموحدة واليابان ـ أكثر من هذا ؟ .

ويقول التقرير أيضًا : لقد شهد العقد السابق ارتفاع القيمة

---

(١) تراجع الجرائد التونسية في ٢٥ (فبراير) ١٩٨٣م ، وكذلك منير شفيق : الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ص ١٢ وما بعدها .

(٢) تراجع الجرائد التونسية في ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٨٣م ، وكذلك منير شفيق : الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ص ١٢ وما بعدها .

النقدية للبون الغذائي عندنا من حوالي ملياري دولار في بداية السبعينات إلى حوالي عشرين مليار دولار في الثمانينات ، وتضاعفت جميع وارداتنا الزراعية عشر مرات في حين لم يتضاعف صادراتنا إلا مرة واحدة ، وبينما كان مجموع الصادرات الزراعية يمثل حوالي (٩٠٪) من كلفة الاستيرادات الزراعية في مطلع السبعينات فقد انخفضت هذه النسبة إلى (١٨٪) في بداية الثمانينات ،وكان متوسط الزيادة السنوية في كلفة الواردات خلال السبعينات (٢٦٪) سنويًا ، بينما لم تزد نسبة نمو الصادرات إلا مقدار (٥ ٪) ومما يؤكد أهمية هذه المشكلة أننا حتى لو استطعنا لخفض نمو استيرادنا إلى (١٥٪) سنويًا فإننا سنشهد كلفة استيراداتنا الغذائية ترتفع إلى ٣٠٠ مليار دولار .

ففي الوطن العربي مجموعة من البلدان تمتلك ثمانين في المائة من الموارد الطبيعية ، ولكنها لا تملك الموارد المالية ، والبلدان الأخرى تمتلك الموارد المالية ولكنها فاقدة للأراضي الصالحة ، أو للموارد المائية ، أو للطاقات البشرية ..

ويعلق على هذه الإحصاءات المفكر الإسلامي (منير شفيق) ـ بمرارة ـ قائلاً : « هذه شهادة لا تترك لدول التجزئة مجالاً لدفاع ،

ولاحقًا برفع رؤوسها ، ولا تترك مجالاً لفكر التغريب ، وبرامجه ، ومناهجه ، ونظرياته ، وأيديولوجياته ، وادعاءاته بالعلمية والموضوعية أن يرفع عينيه وينظر إلى عيون الأمة ، إنها شهادة تجعل المسئولين عن هذا التردي للأوضاع الزراعية ـ الغذائية .. ومثلها التكنولوجية ، والتجارية ، والصناعية ، والثقافية .. أن يطلبوا أن تشق الأرض لتبتلعهم عَلَّهم يُكَفِّرُون عما فعلوه بالأمة . إنها شهادة لا تترك مجالاً للشك في أن الأوضاع استمرت في التدهور وازدادت في سيرها القهقري في ظل الجيل الثاني والثالث بعد مرحلة الاستقلال والاستعمار المباشر [١] .

وليت الأمر وقف عند هذا السقوط الاقتصادي ، والعلمي ، والفكري ، والثقافي ، بل زاد من شناعة هذا السقوط أنه حتى على هذا المستوى السياسي .. مستوى الإستقلال المزيف الذي تتباهى به هذه النظم أو هذه الدول .. حتى على مستوى (الاستقلال) بدأ هذا الاستقلال يفقد معناه سياسيًا . بعد فقد معناه حضاريًا ..

ـ وبالإضافة إلى وضع بعض الدول العربية ـ ولاسيما الخليجية ـ بعد غزو العراق للكويت والتدخل الأمريكي الدولي المباشر ،

---

(١) المرجع السابق ، الموضع السابق .

وفرض الحماية الأمريكية عسكريًا ، تأتي زيارة السفير الأمريكي للناس في (دواوينهم) وكأنه مندوب سام !! .

ـ وأما لبنان فهي أصلاً مكان لنزاعات مختلفة واختراقات دائمة ، وأما قضية فلسطين فقد فقدت في عهد الاستقلال أضعاف ما فقدته أيام الاستعمار ؛ فإن الاستعمار الإنجليزي المباشر لم يستطع خلال ثلاثين سنة (١٩١٨ ـ ١٩٤٨ م) أن يُهجِّر إلى فلسطين أكثر من عدة مئات من الألوف من اليهود ، ولكن في عهود الاستقلال العربي وجامعة الدول العربية احتلت « دولة إسرائيل » في أقل من عشرين عامًا فلسطين كلها ومناطق أكبر من فلسطين مرات ؛ حين نتذكر احتلالها للجولان ، وسيناء ، والضفة الغربية ، وقطاع غزة .. وغيرها .. !!! .

ـ هل صحيح هذا ؟ .

ـ هل هذه (الدول) المستقلة مجموعة من (السجون) ؟

ـ ألا يحمل هذا الأسلوب مبالغة وتشاؤمًا وظلمًا ـ على الأقل بدرجة ما ؟ .

لنقرأ هذه الفقرة [١] للدكتور (كليم صديقي) قبل أن نستمر

---

(١) منير شفيق : الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ص ١١٤ .

في توجيه أسئلتنا الحائرة : « يجب على علماء السياسة المسلمين أن يتحدثوا كمجموعة أسرى ، فعليهم أن يحددوا نموذج السجن ومداه .. ذلك السجن الذي ارتضوا أن يعيشوا فيه ، وعليهم أن يضعوا خريطة واضحة للسجن ، إن لهذا السجن أبعادًا ثلاثة : اجتماع ، واقتصاد ، وسياسة ، وهذه الأبعاد الثلاثة مرتبطة بالأوراق الفكرية التي يعتبر هؤلاء المفكرون السياسيون من أكبر مناصريها وضحاياها في آن واحد ،ولأجل وضع خطة للهروب من هذا السجن المفتوح ولتنفيذ تلك الخطة في نهاية الأمر ، علينا أن نتصرف لبعض الوقت كأسرى نموذجيين ، ونختلط بمعذبينا بطريقة لا تثير الشكوك ، ويمكن إلى حد ما أن نكسب ثقة حراس السجن ، فهم قد يتعاونون معنا ما دمنا لا نشكل خطرًا على مراكزهم وقيادتهم على المدى القصير ! »[1] .

ولنعد ـ الآن ـ إلى أسئلتنا الحائرة :

ـ كيف خرجنا من مرحلة (احتلال) إلى مرحلة أضيق وأنكد ؟

ولماذا دفعنا دماء أبنائنا ثمنًا لهذه الصفقة الخاسرة ؟ .

---

(١) الحركة الإسلامية . قضايا وأهداف (ترجمة ظفر الإسلام خان ، نشر المعهد الإسلامي بلندن ١٩٨١م ، ص٤٩ وما بعدها .

ـ هل وقعنا في (ملعوب) كبير جدًا ومؤامرة عميقة ونحن لا ندري ؟ .

ـ وحقيقة : هل خرجنا من الأسر السياسي إلى الأسر الحضاري الشامل ؟ .

ـ وهل نحن بعد هذه العقود من الاستقلال يجب علينا أن نتصرف كأسرى ، وأن نجاهد في سبيل أن نكسب ثقة حراس السجن ؟ .

ـ وهؤلاء الحراس من هم ؟ هل هم الحراس في الداخل أو في الخارج ؟ .

ـ وأخيرًا : فهل يمكن أن يكون السجن وطنًا لإبداع حضارة وصناعة مستقبل ؟ ! .

ـ وهل يصنع الأسرى تقدمًا ، وحياة ، وحرية ، وكرامة ؟ !

ـ وهل بمقدور البشر أن يخرجوا الحياة من الموت ؟ !! أو الحرية والكرامة من الذل ، والتعذيب ، والفقر ، والملاحقة ؟ !! .

لتكن في كلمات (كليم صديقي) بعض المبالغة أو المرارة مع أن الرجل درسفي بريطانيا ، وحصل على ليسانس الاقتصاد ، ودكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة لندن ، وينتمي إلى واحدة من أفضل

البلاد الإسلامية - نسبيًا - في مساحة الشورى أو الديمقراطية وهي باكستان ..

- لتكن ثمة مرارة أو مبالغة .. ولتكن أوطاننا المستقلة أفضل من السجون !! ولنكن نحن أكثر حرية وكرامة من الأسرى !

- لكن : ما الفرق إذن بين دولة الاستقلال ودولة الحماية أو الوصاية ؟!!

دولة الاستقلال المتشرذمة في عصر التكتلات الكبرى .. هل تصلح للإقلاع في طريق الحضارة ؟ .

- إن تجربة العقود الماضية ، وتجربة التاريخ وطبيعة العصر ، وشروط النهضة ، وسنن الله وأحكام الشريعة .. كل هذه تؤكد أن دولة الاستعمار الحديث المجزَّأة تمثل عقبة في طريق الحضارة ، وعلى الجميع - حكامًا - ومحكومين - بأساليب حضارية وإنسانية أن يعيدوا تركيبها من جديد وإيقافها فوق قضبان التاريخ !! .

الثورة ليست طريق
إصلاح الدولة ولا إنهاض الأمة

هل يستطيع أحد أن يستغني عن الدولة ؟

وهل يمكن أن تقوم (قرية) دون (عمدة) ، أو (قبيلة) دون (شيخ) ، أو (إمارة) دون (أمير) فضلاً عن أن تقوم دولة دون رئيس ، أو حاكم ، أو ملك ينظم شئونها ويخضع رعيتها بوسائل ومؤسسات وأفراد يعاونونه ؟ !!

إن (الدولة) المستقلة التي تملك قرارها ،والتي تستطيع أن تحقق لشعبها (الطعام) و (الأمن) ، وتوفر لهم مطالب الحياة المعيشية والسبل الكفيلة بتقدمهم ومواكبتهم للمراحل الحضارية المختلفة ، وتوازن لهم بين (الواجبات) المفروضة عليهم و (الحقوق) المفروضة لهم ..

هذه الدولة ليست حلمًا ولا فكرة ، ولا مجرد عقد اجتماعي بين حاكم ومؤسساته ، ومحكومين ومؤسساتهم ، بل هي ضرورة من ضرورات الاجتماع الإنساني والحضارة البشرية !! .

في الحظائر وفي المراعي والغابات التي تعج بآلاف الحيوانات لم

يشعر ـ ولن يشعر ـ الأعضاء المقيمون فيها بأنهم في حاجة إلى دولة أو (رئيس) ، أو (مجلس شورى) ، أو (مجلس شعب) بالمعنى الإنساني الشائع بين الأمم المختلفة ..

ونحن لم نفهم أن هذه النظم الإنسانية يمكن أن تكون موجودة في عالم الحيوانات عندما تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١) . وإنما فهمنا أن للحيوانات نظمًا تنسجم مع طبيعة (الاجتماع الحيواني) وتناسب تحدياته وطاقاته وهي ـ في مستواها العقلي والإبداعي ـ مختلفة كل الاختلاف عن مقتضيات (الاجتماع الإنساني) !! .

فالدولة بمؤسساتها إذن لازمة من لوازم الاجتماع الإنساني وكل من يسعى إلى هدم (الدولة) أو تبديد طاقاتها أو توجيهها إلى قضايا بعيدة عن التحديات الحقيقية والمهام الأساسية يرتكب خطأً كبيرًا في حق نفسه ، وذويه ، ووطنه ، ودينه !! .

وتقديرًا من الإسلام لأهمية الدولة وأثرها كان أول عمل قام

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

به الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة هو إضفاء صفة الدولة على المدينة المنورة ، وقد سعى لاستكمال المقومات التي تصبح بها دولة المدينة المنورة دولة حقيقية ذات أعمدة داخلية ، وذات علاقات خارجية ، ومن هنا كان بناء المسجد دارًا للحكم والعبادة وفق المفهوم الإسلامي الذي يضع المعاملات في قالب العبادات ويمزج بين قضايا الدنيا والأهداف الأخروية السامية .

وفي السياق نفسه أقام الرسول ﷺ المؤاخاة حتى يحكم نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية بين العناصر الأصلية والطارئة المكونة للمجتمع ،كما وضع الدستور المدني لإحكام العلاقات بين العناصر المسلمة والعناصر اليهودية والوثنية في إطار الوطن الواحد والدولة الواحدة .

وينص الدستور المدني ؛ كان الرسول ﷺ الرئيس الأعلى للدولة ، والقائد العام للحرب ، والإمام في الصلاة !! .

كما أرسل ﷺ إلى ملوك العالم يدعوهم للإسلام وتبادل لعلاقات .

وفي إطار هذا التقدير لمكانة الدولة والتأكيد على أهمية وظيفتها ـ

أيضًا ـ جاءت الأحاديث النبوية الكريمة تقف ضد الخروج على الطاعة ، وتدين الشذوذ الفردي أو المزاجي أو الجماعي على الحاكم دون أن تكون هناك الموجبات الكافية لهذا الخروج ، ودون أن يكون هناك تقدير موضوعي للأخطار الكبرى التي تحيط بمؤسسات الدولة وبمجموع الأمة من جَرَّاءِ هذا الخروج بل من جراء ترك الأمور وفق الاجتهادات الفردية للخروج عن الدولة بمجرد دوافع فكرية أو بواعث مزاجية !! .

إن الرسول ﷺ يقف ضد هذا المنهج ويحرس هيبة الدولة ، إنه يقول في حديثه الشريف : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ،ومن يعصِ الامير فقد عصاني ،وإنما الإمام جُنَّة يقاتل من ورائه ويتقي به »[1] ويقول أيضًا : « ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته »[2] . ويقول : « من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر »[3] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

وعندما قال الصحابة للرسول ﷺ في الأئمة المخطئين : « يا رسول الله ننابذهم ؟ قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة »(١) .

وفي حديث بيعة العقبة الكبرى ذكر عبادة بن الصامت : « أن الرسول ﷺ دعانا فبايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن نرى كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان »(٢) .

ويرى الأستاذ محمد أسد ـ رحمه الله ـ أن هذه الأحاديث تفيدنا أربعة مبادئ وهي :

أولاً : أن للأمير الذي يمثل الحكومة الشرعية في الدولة حق الطاعة من المواطنين جميعًا .

ثانيا : إذا ما أقدمت الحكومة على إصدار قوانين أو أوامر تتضمن معصية صريحة بالمعنى الشرعي فإنه لا سمع ولا طاعة على المواطنين تجاهها .

ثالثًا : إذا ما وقفت الحكومة موقفًا تتحدى به تحديًا صريحًا

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة .

(٢) رواه البخاري .

متعمدًا النصوص القرآنية فإنه يجب أن تنزع السلطة من يديها .

رابعًا : يجب أن تنزع السلطة من الحكومة دون إقامة أية ثورة ، لأن الرسول ﷺ قال في ذلك محذرًا : « **من حمل علينا السلاح فليس منا** » وقال : « **من سَلَّ علينا السيف فليس منا** » .

يتضح من ذلك أن رسول الله ﷺ قد أمر المسلمين أن يرفضوا تنفيذ أوامر الحكومة التي تتعارض مع نصوص الشريعة ، وأن يخلعوا الحكومة إذا بلغ عملها درجة الكفر ، ولكن تمشيًا مع مبدأ (وحدة الأمة) الذي أكده القرآن والسنة ، وحضًا على ضرورة المحافظة عليه لا يمكن أن يترك لكل فرد من الأفراد تعيين الوضع الذي تصبح فيه طاعة الأمير باطلة المفعول من حيث هي واجب ديني وقومي .

إن مثل هذا الحكم لا يمكن أن يصدر إلا عن المجتمع كله أو عن ممثليه الشرعيين [١] .

ونحن نؤمن بهذا الاتجاه ، لأننا نؤمن أنه لن تستقيم أمة يرى كل فرد فيها أن من حقه أن يخرج على الدولة شاهرًا سيفه أو قاتلاً

---

(١) محمد أسد : منهاج الإسلام (الطبعة الخامسة ، دار القلم بيروت) ص ١١٤ وما بعدها .

رجلاً من رجالها (مهما كان ظلمه !) لمجرد الأخذ بالثأر ، أو للتقدير المزاجي الشخصي ، أو لمواجهة العنف بالعنف ، إن هذا المسلك من شأنه خلخلة المجتمع في أبنيته المختلفة ؛ فهو إلغاء للقضاء وإلغاء للحاكم ومؤسساته المساعدة ، وتحويل الدولة إلى خصم .. فضلاً عن صرف الدولة عن أداء رسالتها التي تتجسد في توفير الأمن وتحقيق العدل للجميع من رجال الدولة ومن أبناء الشعب على السواء .

وكيلا تقع هذه الفوضى وتتفكك الدولة ويعم الصراع الدموي جاءت الأحاديث النبوية الشريفة التي أوردنا بعضها والتي تحفظ للدولة مكانتها وتحملها - في المقابل - مسئوليتها الشاملة نحو أمن الدولة وأمن الشعب معًا !! .

لكن السؤال الذي يجب أن نطرحه هنا ، لكي تكتمل جوانب الصورة هي :ما الدولة ؟ أو بتعبير آخر : ما الدولة التي تستأهل هذا الخضوع من شبعها ؟ .

إن لفظة الدولة تثير بادئ ذي بدء فكرة السلطة : السلطة الفعالة والمحمية والمنظمة ، إن الدولة هي نوع من التنظيم الجماعي

الذي يضمن أمنه وأمن رعاياه ضد الأخطار الخارجية أو الداخلية وهو يتمتع ـ لهذا الغرض ـ بقوة مسلحة وبعدة أجهزة للإكراه والردع ، ولا توجد دولة بلا درجة عالية من الانسجام الاجتماعي والتنظيم[١] .

إن شخصية الدولة ليست سوى رمز يمثل الجهد المبذول لتنظيم مجموعة العلاقات الاجتماعية التي تؤلف المجتمع السياسي كما تحافظ على القيمة الإنسانية للعلاقات التي تزداد تعقيدًا وتسلسلاً ومركزية ، إنها تدل على الرغبة في جعل هذه المنظمة البيروقراطية بحكم الضرورة شيئًا آخر يختلف عن عملاق متعسف لا وجه له ، فإذا كان على الدولة ديون دفعتها ، وإذا بذلت وعودًا نفذتها ، وإذا تسببت بأضرار أصلحتها ،وإن تصرفاتها لا تدل على ظهور سلطة كيفية في الحياة الاجتماعية ، فهي خاضعة إلى القواعد الحقوقية كسائر أنواع التكتلات والجمعيات[٢] .

---

(١) جاك دوفابر : الدولة ، ترجمة د / سموحي فوق العادة ، نشورات عويدات ، بيروت باريس ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

فالدولة ـ مع كل قوتها ـ كيان محكومة بالشريعة والأخلاق .. إنه ليس شيئًا فوق الشريعة ولا الأخلاق بل هو ـ حتى ولو كان إمبراطورية ـ محكوم بسنن الله وعون الله ، ويجب أن يحكمه القانون بحكم شعبه ويعبر عن ذاته وحضارته .

إننا نتوقع أن يقول بعضهم : إنه ليس من المعقول قانونًا وعقلاً أن تستحق كل دولة هذا الخضوع لهيبتها حتى ولو فقدت هذه الدولة الطاغية المزيفة !! أبسط مؤهلات الدولة ! .

فلنفترض جدلاً كما يفترض هؤلاء أن الدولة أصبحت محكومة بعصابة نزلت عليها من قطاع الطرق والمغامرين ؛ فهي تصادر باسم الدولة أموال المتاجرين بها ، وتحول عرق الشعب إلى الخارج لتوضع في حسابات سرية خاصة بأعضائها .

هذه الدولة في ظل هؤلاء النازيين تتسلط بشرطتها عليهم وكأن الشرطة جيش احتلال وليست جزءًا من الشعب وهي ـ إلى جانب ذلك ـ تستورد لأبناء الشعب أبشع وسائل التعذيب وتهدر آدميتهم لأقل الأخطاء أو لمجرد شبهات لم تثبت وتجعل من القانون سيفًا رهيبًا قويًا حين يكون في جانب حماية مصالحها ، وتجعله لعبة زئبقية

بطيئـة الإيقـاع والتـأثير حـين يكـون ضـد طغيانهـا وتـسلطها . او لمصلحة الشعب !!

وفي هذه الحالة .. وحين تنقلب الدولـة إلى أداة ترويـع وتهديـد ، وتنقطع الخيوط بينها وبين الشعب ، حتـى ولـو سـعى العقـلاء مـن الشعب لإقامة حوار معها ..

في هذه الحالة .. وحين تعمد الدولـة إلى حكـم الـشعب بفـرض الجوع والفقر ليبقى منهوك القوى مبدد الطاقـة بعيـدًا عـن الإبـداع والفكر الرزين ..

في هذه الحالة .. وحين تكون أذن الدولة مرهفـة لكـل مقـولات خارجية يخدع بها الأعداء في صحفهم ، وتكون أذنها صماء عن كـل إيقاعات الداخل وصرخاته العاقلة الصادقة المخلصة ..

فكأنها تفترض أن مفكريها لا يستأهلون المبالاة والتقـدير ، بينـما تعرب عن كل التقدير لكلمات الأعداء المغرضين .

في هــذه الحــالات .. حــين تــصبح الدولــة هكــذا في واد بعيــد ويــصبح الــشعب نفــسيًا وفكريًــا في واد آخــر نتيجــة تــراكم هــذه الحواجز والتداعيات التي ربـما امتـدت بتـأثير الأخطـاء مـن بعـض

أجزاء الدولة وأخطاء ـ أيضًا ـ من بعض أبناء الشعب .

هـذا .. حتـى في هـذه الحـالات الخطـيرة ـ ومـع تقـديرنا التـام لآثارها السلبية على مستقبل الأمة ـ لا ننصح باللجوء إلى الثورة ولا إلى الانقلاب ؛ بل نلجأ إلى روح الأحاديث الشريفة فننصح الشعب بتطهير نفسه ونبذ فكرة القوة والحقد والتصالح مع سنن الله الكونية ، والإجتماعية ، وأوامر الشريعة .

ونحن موقنون أن الأمور ستتغير في أجل قريب إلى الأفضل .

فقـد تعـود الأجهـزة إلى قواعـد العـدل ، وقـد يتحـرر لـديها الضمير ، وقد تشعر بأنـه لا موجـب للتمادي في استعمال الوسائل اللا نسانية .

وقد نرى في النهاية أن الشعب لم يعد عدوًا ، وأن قدرًا معقولاً من سعة الصدر ومن جسور الحرية والحب قد تحل الألغاز المعقدة ، وتعيد إلى البناء الاجتماعي الفوقي والتحتي قدرًا معقولاً من التكيف والانسجام !!

إننا نؤمن بأن الدولة يجب أن تكون الأسبق في تقديم النموذج الأخلاقي والإنساني وفي الالتزام بالقانون .. لكننا حتى في هذه

الحالات التي تخطئ فيها الدولة وتقدم النموذج الأسوء لا نرى مقاومة السوء بالسوء والعنف بالعنف هو الحل الصحيح ، لاسيما وأن للدولة بعض العذر في خوفها على هيبتها ،كما أن امتلاك الدولة لأجهزة الردع من جيش وشرطة وغيرها يجعل نتائج المقاومة بالعنف وخيمة العاقبة عل الجميع وعلى الشعب بقدر أكبر !! .

ـ فمن أجل الشعب أولاً ، والوطن ثانيًا ، والأمة ثالثًا ، نرفض مقاومة العنف بالعنف ، ونؤكد أن الوطن والأمة هما اللذان سيدفعان الثمن من رصيدهم المادي والمعنوي في النهاية حين تشتعل صور العفن والحقد بين الدولة والشعب ، وحين يصبح أمن الدولة نقيضًا لأمن الشعب !! .

ولهذا كله جاءت أحاديث (الطاعة) التي أوردنا بعضها سابقًا والتي تقدم ـ كما هي القاعدة الأصولية ـ درء المفسدة على جلب المصلحة .

***

والأصل في وظيفة أجهزة الردع والقوة في الدولة أنها لحماية حقوق الإنسان عامة وحقوق المواطن خاصة ، ولهذا كان لا بد أن تكون الدولة قوية ، فالدولة الضعيفة لا تستطيع حماية نفسها ولا حماية شعبها ولهذا يرى (جاك دوفابر) أن الضمانة الأولى للحقوق هي توافر دولة قوية وبالتالي فقوة أجهزة الدولة من شرطة وعسكريين ورجال نيابة عامة ضروري لأمن الشعب وليس فقط لأمن الدولة ، فإن الشرطة تحمي أو يجب أن تحمي حياة الأفراد وأموالهم ، وعلى الدولة أن تمارس سلطة التحكيم الأعلى في النزاع بين القوى الاجتماعية جميعًا .

وسلطتها في هذا الشأن لا يمكن أن تسمح بأن تعلو عليها أية سلطة أخرى من الناحيتين المادية والمعنوية ، سواء حاولت ذلك المنظمات النقابية ، أو الطوائف الدينية ، أو التكتلات الحرفية ، أو السياسية [١] .

وبالنسبة لنا كمسلمين فإن هذه السلطة العليا ، والتي تتمتع بها الدولة في التحكيم يجب أن تكون مقيدة بتعاليم الإسلام

---

(١) دوفابر : مرجع سابق ص ٨ .

وبالوسائل التي يقرها ، وبالحدود التي تحكم العلاقة بين الفئات الاجتماعية وعناصرها المختلفة !! .

لقد اجتمعت الدول الأوروبية بعد صدامها بالكنيسة صدامًا داميًا في العصور الوسطى على فصل الدين عن الدولة ، ولم يكن أمام الدول الأوربية والأمريكية طريق إلا هذا الطريق في ظل الصرامة العنيفة المكبلة للعقل والإبداع التي فرضتها الكنيسة على فهم الكتب المقدسة وعلى أية محاولة لنقد هذه الكتب نقدًا موضوعيًا .

لقد ألغت الكنيسة ـ أو كادت ـ سلطان الدولة ، وكان لها جواسيسها وسجونها وأساليب تعذيبها ، ولم تكن الدولة في ظل تخلف العصور الوسطى تملك بدائل (قانونية) واضحة لحكم الشعب ، ولهذا طغت الكنيسة وعاقبت عددًا من الحكام والعلماء لأنهم حاولوا الوقوف في وجه طغيانها ، وفي المقابل ناصرت طغاة وفسقة كثيرين لأنهم خضعوا لها وتواطئوا معها ضد الشعب وعقدوا اتفاقيات باقتسام الثروة والنفوذ !! .

وفي ظل هذه الانفصامية تكونت الدولة الحديثة في أوربا ،مقدمة

للبشرية نموذج دول لا تجعل للدين مكانًا في سياستها ولا همومها ، وهي تفصل فصلاً كاملاً بين الدول ، والكنيسة ، والدين ، والعلم ، والطقوس العبادية ، وصياغة الحياة اقتصاديًا ، واجتماعيًا ، وثقافيا .

وكان هذا إفرازًا طبيعيًا .. إفرازًا لتاريخ طويل من الصراع مع الكنيسة التي أساءت كثيرًا إلى حقيقة الدين وبالتالي أساءت إلى العقل الأوربي ودفعته إلى المادية في الفكر والإباحية والنفعية في السلوك !! .

فالدولة الأوربية الحديثة إذن تعبير صحيح عن تطور تاريخي منحرف ، والمقولات التي تحكم هذه الدولة من علمانية ، ومادية ، وبرجماتية ، ولائكية ، ولا دينية هي مقولات منسجمة من تاريخها وتركيبها في ظل القيم الموروثة والعقائد الكنسية التي تهيمن على وجدانها وفكرها .

أما الدولة التي أفرزتها الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي فهي تعبير عن قيم أخرى وعقائد وحضارة تمزج - في الفكر والسلوك - مزجًا كاملاً بين الوحي ، والعقل ، والروح ، والمادة ، والعبادات ، والمعاملات .

وفي طبيعة هذه الحضارة وفكرها الإسلامي أن الانفصام بين هذه المتكاملات وليس المتناقضات كما هو الحال في الحضارة الأوربية يعني موت الشطرين معًا مثلما تنفصل الروح عن الجسد .

وكان على الدولة ـ في المحيط العربي والإسلامي ـ تلك التي تزعم أنها استقلت وانعتقت من إسار الحضارة الأوربية وعادت إلى ذاتها وجوهرها أن تترجم في فكرها ومؤسساتها وتربيتها لأبنائها وإعلامها هذه الطبيعة الحضارية الإسلامية والعربية التي تنتمي إليها ، لا أن تترجم وتحارب في سبيل التعبير عن الحضارة الاستعمارية بكل حروفها الكنيسة واللادينية !! .

فإذا كان ما يسمى (بالدولة) في العالم الإسلامي يحقق الأهداف الاستعمارية نفسها ـ بل وبضراوة أحيانًا ـ ويتقدم يومًا فيومًا لكي يذيب شعبه في الفلسفة والقيم الأوربية نفسها ، فإن هذه المؤسسة ـ إذن ـ ليست إلا مؤسسة عاجزة عن التعبير عن حضارة الأمة التي تنتمي إليها ، وهي بهذا الإطار أقرب إلى التعبير عن الحضارة الاستعمارية المعادية ، وعليها بالتالي أن تسحق شعبها وأن تدخل في معركة تدمير كبرى بالتربية والإعلام والشرطة لكل فرد ولكل بيت ، وتكون بالتالي قد قامت بأروع دور يحلم

الاستعمار به ، وفي المقابل قدمت أكبر نموذج للخيانة العظمى في التاريخ .. إنها خيانة مركبة شائنة .. خيانة لله ، وللدين ، وللنفس ، وللحضارة ، وللوطن وسوف تتوالى على هذا النموذج للدولة الخائنة لعنات الله والناس إلى يوم القيامة !! .

فضلاً عن شيء خطير هو أنها لن تنجح في ذلك فقد فشلت الشيوعية في ذلك أمامنا فشلاً ذريعًا بعد أكثر من نصف قرن من التدمير والسحق للفرد والأسرة والمجتمع ، وقد عاد الناس بعد إلقاء الشيوعية في مزبلة التاريخ إلى ولائهم لدينهم ولقومهم ولأوطانهم ، ولم تصلح عملية الانسلاخ الحضاري التي حاولتها الدولة الشيوعية الآن في موسكو ، لقد عاد المسلم مسلمًا ، والأرمني أرمنيًا ، والأذربيجاني أذربيجانيًا ، والروسي روسيًا .. وعادت الصرب بكل أحقاد الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش تسحق المسلمين أطفالاً ونساءً وشيوخًا في البوسنة والهرسك ، بعد نصف قرن من سيطرة الدولة الشيوعية في يوغسلافيا ومحاولتها بكل الوسائل اللا إنسانية سحق الهوية الإسلامية !! .

فمع الخيانة العظمى التي ستقع فيها الدولة للدين والوطن ، ومع الركوع الذليل للفلسفة الاستعمارية وتحقيق أكبر آمال

الاستعماريين محسوبة على الوطن والدين .. مع ذلك كله فإن المصير هو نفس المصير الذي واجه الشيوعية بعد كل ما بذلته من جهود في تدمير الأديان والأوطان !! .

فهل ترضى الدولة الحديثة في المحيط العربي والإسلامي بهذا الدور الخياني الكبير ؟ ! .

إننا نؤمن بأن كثيرًا من المخلصين لدولابها ومركبها لن يرضوا بهذا الدور إذا أدركوا حقيقته وطبيعته .. وإننا لنرجوهم ونضع أيدينا في أيديهم من أجل ألا نظل رُكَّابًا في قطار يمضي في الطريق المعكوس !! .

وما الحل لأزمة الدولة حضاريًا ؟

بوضوح شديد وبصراحة لا تنقص الاستعمار أعلن فلاسفته بلسان الحال والمقال انهم سيحكمون العالم الإسلامي والعربي عن طريق مؤسسة الدولة الحديثة التي سيكثرون من نماذجها ..

إن الجانب العملي (لسان الحال) واضح جدًا وهو كاف لإدراك الظاهرة لاسيما والاستعمار يلعب بهذه المؤسسة كما يشاء ..

فعندما يلزم الأمر يأتي شخص ما يقبل الدور التمثيلي ضد حضارته في مظاهرة شعاراتية صاخبةليمسك بزمام الدولة .

والاستعمار بعد في معامله مختبراته العناصر المؤهلة والمهجزة والمفصولة تمامًا عن ثوابت الأمة لكي يدفعها إلى قيادة الدولة ..

وسواء أكان ذلك بانقلاب عسكري أم ثورية شعاراتية غوغائية فإن النتيجة واحدة والخلاف اللفظي لا معنى له !! .

وحتى عندما يركب الشعب المسلم مركب الديمقراطية الذي يتظاهر الاستعمار بأنه يدعو إليه ؛ فإن الاستعمار يرفض هذا المركب ونتائجه إن أدى إلى لطريق الصحيح لبعث الأمة وإقلاعها

الحضاري وتحقيق انتمائها وذاتيتها ، وبالتالي يلجأ فورًا إلى العناصر التي أعدها في معامله ، واحتفظ بها في عوصمه ، أو في العواصم الصديقة ، أو في داخل الجيوش الوطنية لكي تؤدي المهمة وتجهض محاولة الإقلاع الحضاري ! .

ونحن في غنى عن تقديم نماذج لهذا السلوك الاستعماري المعروف ، لكن تجارب تركيا والجزائر من أبرز التجارب في هذا المجال ! .

فعندنا وصل الإسلام بالديمقراطية إلى الحكم دفع الاستعمار بعناصره لإلغاء الديمقراطية والإسلام معًا ، وكأنه في رأي الاستعمار وأعوانه أن الديمقراطية مربوطة بصرف الأمة عن ثوابتها وإلا فلا داعي لها ، والديكتاتورية أفضل منها عندما تؤدي الديمقراطية للسير على القضبان الصحيحة !! .

وقد يكون الاستعمار منسجمًا مع مصالحه فتحقيق المشروع الحضاري الإسلام سيقتلع هذه المصالح التي تحفظ الشعوب المسلمة في مرحلة (بروليتاريا) للاستعمار ، وسيقف العالم الإسلامي بالشورى والاستقلال الحقيقي مكافئًا للاستعمار ، أو

على الأقل في موقع المقاومة للمكانة التي يريد الاستعمار أن يبقيه فيها .

فالوضوح العلمي لأهداف الاستعمار من مؤسسة الدولة لسان الحال لا يحتاج إلى دليل !! .

أما الوضوح الفكري (لسان المقال) فلم يبخل به الاستعمار كذلك بل إننا - تلامذة وأساتذة - كنا نحفظ ونكرر قاعدته الكبرى لاستعمارنا في كل يوم وكأننا نكرر أغنية وطنية !! .

فكلنا متفقون على أن الاستعمار يحكمنا بشعاره القولي والعملي (فرق تسد) وفي كل كتب المطالعة والتاريخ وما يسمى بالتربية الوطنية كنا نكرر ونعيد هذه المقولة !! .

والطريف في الأمر أننا ونحن نكرر هذه المقولة ، كنا نحاول - عامدين أو جاهلين - تجاهل أن أبرز دلالاتها ليس فيما نروِّج له من أساليب الوشاية الاستعمارية المباشرة بين الدول الإسلامية ونشر صور التناقض الفكري بينها ، مرة بالاشتراكية ، ومرة بالقومية ، وثالثة بالوطنية ، ورابعة بالعلمانية ، لإبعادها عن الوحدة التي يكفلها الانتماء للحضارة الإسلامية الواحدة عقيدة ومنهج حياة .. وإنما أبرز دلالاتها - بل وأثبتها وأقواها في الحقيقة - يتمثل في

التقسيم القطري الذي رعاه الاستعمار إلى عشرات من الدول تنكفئ كل منها على نفسها ، وتتعارف مع جيرانها على عدم التدخل في الشئون الداخلية ، وعلى الانتساب إلى الهيئات التي تدعم هذا المفهوم التمزيقي مثل المنظمات الدولية ومثل جامعة الدول العربية التي تمنع الوحدة حين تحافظ بإصرار على كلمة الدول فضلاً عما ركب في نظامها الأساسي من عناصر التمزيق والضعف !! .

لقد عمدنا إلى تجاهل إبراز هذه الدول ـ بطبيعتها هذه ـ أنها هي التطبيق العملي الثابت لشعار (فرق تسد) وأنها ستبقى كذلك ما لم تقم بمقاومة عملية لهذا الشعار الاستعماري ، وذلك بقيام هذه الدول نفسها بتحليل عناصرها ، وتنقية مركباتها ، والانتصار على نفسها ، والسير في طريق العمل الحضاري المشترك في ضوء الثوابت العقدية وأبجديات الحضارة .

ولا حَلَّ أمام هذه الدول عند توافر الرغبة الحقيقية في إصلاح هيكلها إلا باستنفار كل طاقات شعبها وبناء إنسان قوي قادر ـ كفرد ـ على تحطيم الأهداف الاستعمارية حين يشكل على أساس أن طريق صناعة الحضارة يقوم على استثمار كامل للإنسان والوقت

والأرض من خلال مفاعل عقدي حضاري منفتح ذي رسالة إنسانية وهو بالنسبة للعالم الإسلامي لن يكون سوى الإسلام .

هذا الإسلام الذي سيصبح وقوده ، وفي الوقت نفسه منهجه ، وكذلك رسالته الدائمة الثابتة إلى العالم ، فهو إذ يدفعه للعمل الشاق في السباق الحضاري ويجعله يعبد الله بالعلم الدنيوي القادر على مواجهة العلم الدنيوي الذي تسخره الحضارات الأخرى لسحقه وسحق الأطر الحضارية الأخرى في العالم ..

الإسلام إذ يوجهه إلى العمل والعلم يحميه كذلك من الذوبان والتآكل الداخلي في صراعات (فرق تسد) .

ويستعلي به إلى توجيه أسمى يشدُّ الدولة إلى رسالة أعلى تخرج بها عن الدائرة المغلقة التي وضعها الاستعمار فيها .. وعندئذ تصبح الدولة جزءًا من رسالة إنسانية ومشروع حضاري عالمي .

لقد كانت هي الملاذ له حتى في حالات الانسحاق العسكري ، فلقد انهزم المسلمون هزيمة نكراء أمام التتار سنة ٦٥٦هـ لكن الدعوة ما لبث أن انتصرت وأسلم المنتصرون عسكريًا وجلسوا تلامذة أمام المسلمين الذين انطلق علماؤهم يعلمونهم الكتاب

والحكمة ،ويأمرونهم فيطيعون !!

إن دخول الدولة كجزء من دعوة عالمية ، تقف على ثغرة من ثغورها ، وتجند لها شطرا كبيرًا من إمكاناتها ، وتتبادل المواقع - بتخطيط - مع الدولة الأخرى في المحيط الإسلامي ، من شأنه أن يزيل الآثار المدمرة لتعدد الكيانات السياسية في العالم الإسلامي ، ولسوف يقضي على الخلافات التي تنجم عن الحدود المشتركة ، والمذاهب الوافدة ، والأحزاب الفكرية السياسية التي تقوم في أراضيها وتشتت شملها ، وتحدث بينها التناقض والصراع .

وبشيء من التنسيق في العمل - فكريًا ، وتربويًا ، وإعلاميًا ، وسياسيًا ، واقتصاديًا - سوف تصبح الدولة الإسلامية أجزاء لفاعلية واحدة ، وسهامًا تختلف مواقع انطلاقها لكنها تصب في غاية واحدة .. ولسوف نجد القوى الاستعمارية نفسها في مواقف الدفاع بعد أن حولتنا منذ قرن إلى مواقع الدفاع المتدنية ، وأصبحنا لا هم لنا إلا الحديث عن مخططاتها ومؤامراتها وغزوها الفكري والثقافي ، وكأننا ببلاهتنا المعهودة ننتظر منها وهي العدو الحضاري الثابت شئنا أم أبينا ، شاءت هي أم أبت أن تتحول إلى حمام وديع ، وأن تكف عن استنزافنا ، وأن تتركنا حسبة لوجه الله لكي نقوم

وننهض ونحافظ عل خيراتنا ونعاملها بندية ، بل ربما أصبحنا ونحن ـ كما تدرك هي أننا مؤهلون لذلك ـ قوة حضارية وفكرية جديدة وتحولاً جديدًا في التاريخ !! .

وبالإضافة إلى هذا الدور الكبير للدعوة ؛ فإنه من الجدير بالذكر أن نوضح الدعوة التي تعني جوهر شخصيتنا الحضارية والإسلامية فضلاً عن تبليغ رسالة الإسلام الفكرية وصياغتها للحياة إلى العالم هي شرط من شروط تحقيق كيان هذه الأمة .. فالقول بأن أيا من الوطنية أو القومية تصلح رسالة لنا قول هراء ، والقول بأن أمة لا تستطيع أن تبقى في التاريخ بلا هوية وعقيدة أيديولوجية هراء ، كذلك فعنصر الاستجابة للتحدي الذي تطرحه الأيديولوجيات الأخرى يقتضي التسلح بسلاح الدعوة التي تشكل العقيدة والرسالة .

إن تجربة الدولة الإسلامية الأم بين أن الدعوة كانت صمام الأمان ، وطريق مقاومة الشتات والاستجابة للتحديات ، وقطع الطريق على الخصوم وتحويلهم إلى موقف الدفاع ،ولهذا تحولت الأمة كلها في عصر الرسول ﷺ والراشدين لإلى منظومة جهادية في حالة تأهب دائم من أجل اقتحام العالم .

ولم يكـن جنـد بنـي أميـة (رضي الله عـنهم) غـير نخبـة شـباب المسلمين المتطوعين للجهاد والمرابطة دائمًا .

وبغض النظر عـن ماهيـة الـسلطة آنـذاك فـإن العلـماء المـسلمين كانوا يرون استمرار الدعوة عن طريق الجهاد كفيلاً بتـصحيح كـل شيء ، لهذا كان الرباط بسواحل الشام [1] ولهـذا كـان الانطـلاق إلى أقصى الشرق والغرب لنـشر الـدعوة في أصـقاع الـترك والقـوط [2] مثلهم الأعلى ، وفي هذه الفترة بالذات انتشر الحديث المشهور الذي يأمر بالصلاة (جماعة) خلف كـل أمـير والجهـاد (دعـوة) مـع كـل سلطان [3] .

وعندما رأى عمر بن عبد العزيز أن الفتوحات أصبحت معارك دولة على حساب الدعوة أوقفها ، لأن الدعوة هـي الهـدف وبـدون

(١) نقلاً عن رضوان السيد : الأمة والجماعة والسلطة (نـشر بـيروت) طبعـة أولى ١٤٠٤هـ) ص ١٦٣ ، وانظر تاريخ أبي زرعـة الدمـشقي (مخطوطـة مكتبة الفاتح) ١/ ٦ ، وما بعدها (نقلا عـن رضـوان الـسيد) ــ المرجـع الاسبق .

(٢) قارن بكتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك (نشر نزيه حماد / ١٩٧١م ص ٣٦ ـ ٤٢ نقلاً عن رضوان السيد ١٦٣) .

(٣) قارن عن الحديث وأحاديث متشابهة : كتاب الجهاد لابـن المبـارك ص ١٣ وما بعدها ،والمعجم المفهرس ١/ ٣٨٨ نقلاً عن رضوان السيد .

الدعوة تصبح الحروب وسيلة تدمير لجميع الأطراف !!.

لقد شاع لدى كثير من المؤرخين أن عمر بن عبد العزيز أوقف الجهاد، وأمر الجند كله بالقفول بحجة أن الجهاد تحول إلى تجارة، بينما النبي ﷺ (رحمة مهداة) وانه بعث هاديًا لا جابيًا، وكان من نتائجه توقف تقدم الإسلام في أواسط آسيا لأكثر من نصف قرن، لكن من الجدير بالانتباه أن المتطوعين المسلمين الذين كانوا يرفضون تلقي العطاء كانوا يستطيعون متابعة الاقتحام، فإذا علمنا كذلك أن الجند الإسلامي في خراسان كان يخوض معركة المطالبة بمساواة الموالي المجاهدين كان في حالة ثورة على الإدارة الأموية لعدم إمداده بالمواد التي تعينه على متابعة الحصاد في الشتاء القاسي، أدركنا أن القضية كانت بالنسبة إلى عمر ليست قضية موازنة بين رحمة وتجارة، بل قضية موازنة بين دعوة ودولة [1] دعوة تعتمد القتال [2] لتحقيق سمو الأمة في العالم، ودولة تريد قطعة محددة من الأرض تستطيع بشرطها وعصبيتها أن تسيطر عليها .

ولا مانع أن يكون الإسلام هو الفكروية السائدة على هذه القطعة المحددة من الأرض، لكنه الإسلام الذي يمكن ضبطه،

---

(١) رضوان السيد، المرجع السابق ١٦٤ .

(٢) كوسيلة اضطرارية وهناك وسائل كثيرة أخرى أساسية .

والشريعة التي يمكن استيعابها .

لكن الدعاة لم يستسلموا لمفهوم الدولة هذا بل مرة أخرى استخدموا التجربة التاريخية للنبي ﷺ والراشدين لدعم وجهة نظرهم في الدعوة ، وفي أن الجهاد بأشكاله المختلفة مستمر إلى يوم القيامة [١] .

وعندما فشل الفقهاء والدعاة وانتصر مفهوم (حروب الدولة) بعد عمر بن عبد العزيز (ت : ١٠١هـ) كان لا بد أن تترنح الدولة الأموية آيلة للسقوط !!

ومثل ذلك وقع في الأندلس فلقد انتصر المنصور بن أبي عامر (٣٦٦ ـ ٣٩٢هـ) في سبع وخمسين غزوة ضد نصارى الشمال الأسباني ، ولم يهزم في معركة قط ، وقد جلب الخير الكثير لشعبه لدرجة أنه سمي الجلاب ، لكن ما إن مات المنصور حتى ترنحت الأندلس داخلة في عصر من أسوأ عصور الأندلس وهو عصر الفتنة (٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ) الذي أدى إلى عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٧٨ هـ) .

وكان السبب الرئيسي أن هذه الحروب كانت حروب دولة ولم

---

(١) رضوان السيد : الأمة والجماعة والسلطة ص ١٦٤ .

تكن معارك اقتضتها مسئولية الدعوة .

ونحن في عصر قد تكون الحروب فيه باهظة التكاليف ، وقد تعددت فيه أساليب نشر الدعوات بحيث لم يعد ثمة حاجة ملحة للحروب بالنسبة لنشر الدعوة ، فلم يعد هناك حاكم طاغوت يستطيع أن يمنع تبليغ كلمة الله ، فإن المذياع وشاشة التلفاز لا يستأذنان حاكمًا ولا يعرفان السدود والحواجز والحدود الدولية ، وكما أن طبيعة العصر أوجبت نوعًا من الانفتاح بحيث صح القول لشائع وهو أن الأرض أصبحت قرية إليكترونية .. وهناك نحو مائة إذاعة ـ بلا مبالغة ـ وعشرات القنوات التلفازية متخصصة بوضوح في نشر النصرانية وتشويه الإسلام .

ولو أننا وجهنا بإخلاص وصدق نصف هذا العدد بلغات مختلفة لنشرنا الإسلام وهو دين الفطرة والعقل ولحققنا نتائج ممتازة ، هذا بالإضافة إلى الوسائل الإعلامية والتربوية الأخرى ليس من همنا أن نحصرها هنا !! .

إن (الدعوة) هي طريق النجاة الوحيد الذي نقدمه لهذه الدول الإسلامية كثيرة العدد والتي لا وزن لها في عالم اليوم ، لا في النظام

القديم ولا في النظام الجديد ، إن كان ثمة ـ حقيقة ـ هذا الذي يسمى بالنظام الدولي الجديد ..

وحتى هذا الشعار المسمى بالنظام الدولي الجديد والذي تلقفه العرب والمسلمون السذج وكأنهم أمسكوا بطوق النجاة ؛ يدل دلالة بالغة على أن العرب في الحضيض من إعمال العقل والفقه بسنن الله في التطور الحضاري ، واستيعاب معطيات التاريخ ، والوعي بظروف التحولات الحضارية ، والأخطر من ذلك الإدراك بحقيقة الصراع الحضاري والهيمنة الغربية والأقرباء والأعداء !! .

فلا أمل لنا في البقاء إلا بالدعوة الإسلامية بفكر يقاوم الفكر الضاغط بدعوة قد يجد فيها الخصم ـ إذا أحسنًا طرحها ـ جسرًا يلتقي به معنا ، ويجد نفسه مضطرًا لتعديل موقفه الأخلاقي والحضاري منا ، ذلك لأنه هو نفسه في حاجة ماسة إلى الدعوة إنها علاج لكثير من أمراضه المدمرة ، وتعديل لصياغته للحياة ، لكنه في هذا الوضع القوي وهو التيه لا يتصور أن أمثالنا من الشراذم المتخلفة المندثرة بعباءات هشة دولاً يعرف هو نفسه حقيقتها أكثر بالطبع مما نعرف نحن .. لا يتصور أن أمثالنا من المتهالكين

المستهلكين يمكن أن يكون لديهم المنهج الصحيح لعلاج حضارته ولعلاج الإنسانية جمعاء .

لكن هذه هي الحقيقة التي ستنكشف يومًا عندما تصل الأمور إلى الحضيض ، وعندما يفلس الجميع وتسقط في الحضارة الأوربية عوامل القوة أمام ضغوط عوامل الاستلاب الإنساني والكوني التي تبدو نذرها قوية لأصحاب القلوب النقية والعقول المتحررة من ضغوط الواقع والمادة .

إن هذه الدول الإسلامية والعربية ترتكب جريمة كبرى في حق نفسها وفي حق الإنسانية كلها عندما تنكفئ على ذاتها هذا الانكفاء الرخيص الذي تعلم هي أن نهايته لن تكون أفضل من نهاية غرناطة .. وهي كذلك ترتكب جريمة عظمى عندما تسمح لأعداء الإسلام من أبنائها بقيادة فكرها ، وتربيتها ، وإعلامها ، وثقافتها ، واقتصادها ، واجتماعها بالتالي يقدمون أسوأ صورة لحضارة الإسلام ويضللون الإنسانية كلها ، ويبعدونها عن رؤية الحق والنور وطوق النجاة للبشرية .

وعلى العكس من ذلك فإنها ستقدم لنفسها وللعالم كله أعظم خدمة عندما تدير سياستها وفكرها وحركتها في العالم حول قضية

عالمية منسجمة مع تراثها ووعائها الحضاري ورصيدها التاريخي وحقائق العقل والفطرة ، إنها تتجاوز بهذا السجن المظلم الذي وضعها الاستعمار فيه وتنطلق عالميًا ؛ فتصل إشعاعاتها نظائرها إلى العالم فتحترق وتتفاعل وتنتقل من مرحلة الانكفاء والدفاع إلى مرحلة الانتشار الحضاري والرسالة العالمية ..

وليس ثمة قضية كبرى تحقق كل هذا إلا قضية الدعوة التي يجب أن تكون مركزية الدولة المسلمة وجوهر سياستها وطوق نجاتها .

إنها الطريق الوحيد الذي حدده الله للأمة أفرادًا ومؤسسات ودولاً للنصر والتمكين : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

فهرس

الموضوع	الصفحة

